أحمد بيضون

بنت جبيل

ميشغان

للمؤلّف

- **ديوان الأخلاط والأمزجة**، شعر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت 1984
- **بيروت اللقاء**، سيناريو، دار الباحث، بيروت 1984.
- **مداخل ومخارج، مشاركات نقدية**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت 1985
- **الصراع على تاريخ لبنان**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1989
- **بنت جبيل– ميشيغان**، دار العربية، بيروت 1989.
- **ما علمتم وذقتم، مسالك في الحرب اللبنانية**، المركز الثقافي العربي، بيروت– الدار البيضاء 1990
- **كلمن، من مفردات اللغة إلى مركبات الثقافة**، دار الجديد، بيروت 1997
- **تسع عشرة فرقة ناجية، اللبنانيون في معركة الزواج المدني**، دار النهار، بيروت 1999.
- **الجمهورية المتقطعة، مصائر الصيغة اللبنانية بعد اتفاق الطائف**، دار النهار، بيروت 1999.
- (إشراف أ. ب.): **اتجاهات البحث في العلوم الاجتماعية وحاجات المجتمع اللبناني**، اللجنة الوطنية اللبنانية للأونسكو، بيروت 2000.
- **الصيغة، الميثاق، الدستور**، دار النهار، بيروت 2003 (بالعربية والفرنسية).

بالفرنسية

- **Identité confessionnelle et Temps social chez les Historiens libanais contemporains,** Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth 1984.
- **Le Liban, Itinéraires dans une Guerre incivile,** Karthala-Cermoc, Paris 1993.
- **La "Formule", le Pacte et la Constitution,** Dar Annahar, Beyrouth 2003. (Ouvrage bilingue).

ترجمة

- ميشال شيحا، **لبنان اليوم (1942)**، نقله عن الفرنسية أ.ب.، دار النهار ومؤسسة ميشال شيحا، بيروت 1994.
- ميشال شيحا، **في السياسة الداخلية**، نقله عن الفرنسية أ.ب.، دار النهار للنشر ومؤسسة ميشال شيحا، بيروت 2004.

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار العربية للتوثيق والدراسات والنشر، في بيروت، سنة 1989.

إهداء

هذه حفلة تكريم، شئتها فرحة،
لبنت جبيل ميتشغان
وهذه أيضاً، تحية، جاءت حزينة،
لذكرى الحاج أبي أحمد الذين يدين له أولاده بالمحبة
تلقاهم أينما حلوا.

للـّهو آونةٌ تمرّ كأنَّـها

قُبَلٌ يُزوّدها حبيبٌ راحلُ

جمَحَ الزمانُ فلا لذيذٌ خالصٌ

ممّا يشوبُ ولا سرورٌ كامل

المتنبّي

المطـار (1)

في مطار ديترويت الجديد كانوا نحواً من ستين. جاء معظمهم من ضاحية ديربورن القريبة وبعضهم من مواضع أبعد. والذي لم يكن يسعني أن أناديه من بينهم بـ " ابن العمّ" كنت أناديه بـ "الجار" في بعض الحالات وبـ "الأخ" في أغلبها. فكأن الحاجة إلى تقريب القرابة الرمزيّة تشتدّ كلما تراخت قرابة الدم. كانت النساء قد انتحين ناحية ما خلا شقيقاتي الأربع اللواتي كنّ يتقدّمن الصفوف وفي يد إحداهنّ آلة تصوير ضخمة. فبدا اختلاط الجنسين نادراً وبدا، بالتالي، أننا لا نزال حيث كنّا.

كنت آخر الخارجين من الطائرة لأن المُدخّنين باتوا يحشرون في الصفوف الخلفية من الطائرات، قرب بيت الخلاء، مع أن التدخين مَجْلبة للإمساك، على ما يزعم الأطباء. وحين وصلْت إلى حيث المستقبلون كنت أشعر أنني لا أستحقّ أن يستقبلني أحد لفرط ما دخّنت وأقول لنفسي إن معامل فورد الكبرى، في ديربورن، تدخن أكثر مني ولا ريب، وإنني لا أستحق أيضاً هذا العزل المُهين في الطائرة وفي كل مكان عام. ولكن سطوة الأنظمة الأميركية شديدة وسريعة الدخول في النفس. لذا لم ينفع ما استحضرته من أعذار صناعية في إبطال شعوري بالذنب.

صفَّقَ الجميع حين أطللتُ بطلعتي المرهقة، فأبطأ الأميركيون الذين خرجوا أمامي لحظة وتلفتّوا ثم ولّوا الأدبار. بعد التصفيق القصير بدأ العناق. كان مفروضاً– وهذا فرض خاطئ لا أعرف من صاحبه – أنني اعرف الجميع، وعليه لم أستثنِ من التقبيل أحداً. لم يكن الوقت يتسع للتدقيق في الوجوه التي تغير معظمها كثيراً، ولكن بعضهم سألني إن كنتُ عرفته. أجبتُ بالإيجاب حيناً وبالسلب حيناً ولم أكن على يقين مما أجبت به في بعض الحالات. البعض (القليل) لم أكن رأيته في حياتي قط لأنه وُلد ها هنا أو كان في بيروت أيام كنت أنا في بنت جبيل ثم هاجر. والبعض (القليل أيضاً) شاهدته قبل شهر واحد في بيروت، ولكن منظره تغير، بعض الشيء، مذ ذاك، وكأنما توجد سيماء للمغترب الطازج. وصديقي الذي أذكر الزيت على شعره العالي وبثور الصبا على جبهته لم يكن في المطار لأنه، ساعة وصولي، كان في عمله. جاء في اليوم التالي من غير شعر وأمامه كرش عالٍ كأنه قضية كبرى، وأنبأني أنه صار ذا أحفاد.

شقيقاتي كنّ أول من عانقني. أربع قبلات أو خمس للواحدة، مع أن النصاب في ديارنا ثلاث. وحين فرغت من معانقة الرجال، بعد ذلك، حدّثتني نفسي، في سَوْرة القرابة، بالإجهاز على بنات الأعمام أيضاً. فإن معظمهنّ قد جاوزن الخمسين بقليل أو كثير وسمنّ أيضاً إلى درجة خلْتُها

تجيز لي أن أعدّ نفسي واحداً من أبنائهنّ. لكنهن أخذن يرفعن أيديهن إلى صدورهنّ رافضاتٍ حتى مصافحتي، وكأنهن لم يحضرن لاستقبالي أصلاً. بلى قبّلتني إحداهن في كتفي وصافحتني الشابات وضحكنا كثيراً من شقيقتي الثالثة وهي تتعثر بأذيال زغردة قديمة نسيت معظم كلماتها. قلت إننا لم نعد حيث كنّا بالضبط، على الأرجح.

وحين خرجنا إلى باحة السيارات، في المطار، كانت السماء ترذّ. واستقرّت حقائبي في صندوق سيارة سوداء، بالغة الفخامة، شهدْت ساعتها أول معركة طاحنة بينها وبين سائقيها: أختي وصهري. فقد غلّقت المبروكة أبوابها، ومحرّكها دائر، ونحن حولها، تحت المطر. وكان لا بد من مخابرة المنزل لأخذ الرمز الذي يتيح فتح الباب بالضغط على أرقام مثبتة في زاويته الخارجية. فكان أن تركْنا صهري يبحث عن هاتف ويمّمنا شطر سيارة أخرى، بحثنا عنها طويلاً لأن صاحبها نسي رقم الممر الذي أوقفها فيه. قيل لي إن الصدفة وحدها هي التي هدتنا إلى السيارة بعد هذا البحث الذي يعتبر يسيراً حين نعلم أن السيارات، في ذلك المبنى ، ألوف فوق ألوف.

قلت في نفسي: " يا أبا عليّ، نحن في ديار الغربة ولا يليق أن تنصر سيارة لئيمة وأخرى شاردة على صهرك وعلى ابن عمّك. بل أنت وصهرك على السيارة اللئيمة وأنت وابن عمك على السيارة الشاردة." لكنني أكذب إن قلت إنّ عصبيّتي التي أخذت أستثيرها بهذه العبارات كانت بلا شائبة. فإنّ هاتفاً خبيثاً ظلّ يزيّن لي أننا نظلم السيارتين وأننا نحن المذنبون: أنا وصهري وابن عمي وسائر المشرق. بعد ذلك قيل لي إن الجيل الطالع منّا له مع السيارات شأن آخر. وعاينتُ ابن أختي، فعلاً، وهو يسوق السيارة السوداء نفسها، وهي صاغرة، وكأنه لا يجاوز أن يسوق قدميه.

وصلنا إلى بيت أختي، إذن، وكانت السُفرة ممدودة في الـ Basement– الدور الذي تحت الأرض – وهو قاعة واحدة مساحتها مساحة البيت كله. كان قد بقي من المستقبلين الستين نحو ثلاثين وغادر الآخرون، إما إلى عملهم الليلي وإما تلطّفاً وتخفيفاً للزحمة في المنزل. أكلنا مريئاً وواصلت أختي التصوير الذي سيأتي حديثه ثم تولاه عنها بعض الأقارب. وفي وسط الليل كان الاستقبال قد أدّى أغراضه العميقة التي تتجاوز بكثير شخص العبد الفقير. ألم يحصل اجتماع وعناق وتؤكّدْ مراتب وتُستعدْ طقوس هي التي تتخلل السلام والمؤاكلة والقيام والقعود والحديث ؟ ألم نقل ، في خلال هذا كله، إننا نحن نحن على الأرض الغريبة ؟ بلى حصل لنا هذا وظل يحصل طيلة إقامتيّ القصيرتين في ديربورن، وقد دامت كلّ منهما أسبوعاً وفصلت بينهما رحلات إلى ديار أخرى طالت ثلاثة أسابيع. كانت الإقامة الأولى للسلام والثانية للوداع، وقلما فعلت شيئاً غير هذين

في غضون تلك الأيام. أي أن الأمر كله كان طقوساً في طقوس وكنت أنا – لأسباب لا أستبينها كلها – قربان الجماعة.

الوطن والمهجر

الجالية اللبنانية، في ديربورن، قد تكون خمس المدينة التي يقال إن تعداد سكانها مائة وخمسة وعشرون ألفاً. الأرقام تختلف اختلافاً بيّناً من مصدر إلى آخر، رغم أنف الحضارة التي هناك وهي اليوم حضارة "الحاسوب". وأهالي بلدتي، بنت جبيل، من أعمال جبل عامل المطابق، تقريباً، لمحافظة لبنان الجنوبي (قبل تقسيمها، مؤخّراً، إلى اثنتين) هم نصف الجالية. اليهود، في نيويورك الهائلة ، أوفر عدداً من يهود إسرائيل، والبورتوريكيون أوفر عدداً من سكان بورتوريكو. و "الجبيليون" في ديربورن الصغيرة، هم ثلاثة أمثال الذين ما زالوا مقيمين، الآن، في بنت جبيل المحتلة. ويليهم، في العدد، جيرانهم أهل تبنين، فتتشكل من البلدتين أكثرية الجالية الساحقة.

وفي ما مضى حدّثنا أبي قال: حين توفي، في بنت جبيل، عشية الحرب الأهلية، علي خ. ب.، وكان قد جاوز الثمانين، لم يكن قد بقي من أهله الأقربين، في البلدة، من يتقبّل التعازي به. فتولّى ذلك أقاربه الأبعدون. هذا بينما أقيمت له ذكرى أسبوع في جامع ديترويت، وقف فيها لتقبّل التعازي نحو من سبعين شخصاً جميعهم منحدرون من صلبه ومن صلب أخيه.

أما الشكوى من قلّة فعّالية الجالية فعامّة وهي تتوزع على محورين. الأول أميركي، وهو يختص بجيل الشباب الذين يقولون إنّ تفرق الكلمة وضعف المبادرة يفقدان الجالية ما لها من حقوق على هذه المدينة، سياسية وإدارية. فقليل من أبنائها من يُشارك في الانتخابات، أياً يكن نوعها. ومن طمح منهم إلى ترشيح نفسه لمنصب ما، في المدينة ، نبذه أبناء جلدته عوض أن يساندوه. وهم لو اتحدوا وتشكل منهم ما يسمّى هنا بالـ " لوبي"، لفرضوا على حاكم المدينة ومجلسها ما يشاؤون أو بعضه على الأقلّ. فلم لا يكون منهم خمس شرطة المدينة مثلاً، عوض أن يفرحوا إلى هذا الحد بشرطيّ أو اثنين اختيرا من بين صفوفهم مؤخراًَ؟ هذا الغبن يستشعره الجيل الذي ما يزال مُنقاداً إلى آبائِهِ وإلى سواد الجالية، وهو يرى أفواجاً منه تخرج من الجامعات وترمق من جراء هذا أو من جراء النجاح في الأعمال مكانة لم تكن مرتسمة في أحلام الآباء. ولما كان نجاح الأفراد – على تيسّره النسبي – محتاجاً ، في المجتمع الأميركي، إلى ضمانة الجماعة، ليكبر ويتكرّس، فإن الجيل الجديد لا يسارع ، في الغالب، إلى شقّ العصا والخروج من الجالية. بل هو يرى حقاً له أن ترفعه الجالية، على أكفّها، وأن تتولى تتويج كفاحه. وأما الجالية فما زالت لا ترى نفسها جالية إلاّ إذا بقيت

هي هي، أي إذا حصرت أميركيتها في مجال المعاش، واستبقت سائر وجوه حياتها (وبينها الوجه السياسيّ) للموروث.

المحور الثاني للشكوى، وهم الأعمّ، لبناني. هنا يقولون إنهم لو كانوا متحدّين لأمكن أن ينال بلدتهم وأهلها منهم خير أعمّ مما نالها و نالهم حتى اليوم. حتى اليوم ثبتَ مشروع واحد ذو شأن هو مشروع الدولارات الخمسة. المشترك فيه يدفع خمسة دولارات كل شهر ويجبى مال آخر من الأعراس والمآتم ويرسل هذا كله إلى المحتاجين من المقيمين في بنت جبيل. في العام الماضي بلغ الحاصل 84 ألفاً أفادت منها نحو سبعمائة أسرة هي أكثرية الأسر "الصامدة" والمبلغ لا يشتمل بالطبع على ما يرسله كل مغترب إلى أهله، هو وأقاربه، وإلى أصدقائه، في بعض الحالات. المغتربون أصلحوا أيضاً حسينية بنت جبيل وجمعوا، إلى الآن، خمسين ألف دولار لحفر بئر تشرب منها البلدة وتخلص من بائع المياه الإسرائيلي. هم يعتبرون هذا كله قليلاً ويودّون لو أوجدوا هيئة تتولى المبادرة والتنظيم. لكنهم مختلفون، سلفاً، في خطة الهيئة: هل تقتصر المشاريع والمعونات على بنت جبيل أم تشمل "جاليتها" في بيروت وضاحيتها؟ هل يتوجهون مباشرة إلى العمل في لبنان أم يقيمون، في البداية، مشروعاً كبيراً (قاعة تؤجّر للاحتفالات) في ديربورن تسدّد تكاليفها ثم توقَف على العمل الخيري؟

ثم إنهم مختلفون أيضاً في أمر "زعامة" العمل. قلما يستعمل أحدهم لفظ " القيادة" فهم يفضّلون مصطلح بلدتهم الأليف. العائلات قابعة تحت الخلاف وفروع العائلات والعالم الأميركي المتسع للأفراد أيضاً وهو لا يزيّن لك أن تنضوي – في غير مجال المعاش– تحت جناح أحد. والمختلفون في أمر الزعامة يلتقون كل يوم تقريباً ويقولون لك " نحن مختلفون في أمر الزعامة " ويضحكون. وأكثرهم مرحاً ينتخبون " زعيماً " لسهراتهم يعزلونه كل أسبوع...

أبو رشيد: المهنة والمكانة

كان أبو رشيد يعمل، لسنوات خلت، في معمل لتصنيع لحوم الخنازير. ولما كان قد جاوز سن الشباب بشوط غير قصير أُسند إليه عمل يعتبر أسهل الأعمال في المؤسسة. وهو أن يجلس ومعه خاتم كبير يختم به الخنازير المذبوحة على أقفيتها وهي تمرّ أمامه بعد المراقبة الصحية. كان ينتظر الباص، في حي " دكس" مع زملائه اليمنيين، ليوصله في الثامنة صباحاً إلى عمل لا ينتهي إلا في الخامسة مساء. وأبو رشيد – إلى ظرفه – قويّ البنية، مفتول الذراعين، مذ كان أبرز القبضايات في حارتنا. على أن صقيع الصباح في " دكس" أمرٌ لا يُطاق في فصول ثلاثة من أربعة، إن كان عليك أن تقف على الرصيف لأنك لا تملك سيارة دافئة. ثم إن الخنازير الزهريّة اللحم كانت تصل إلى عشرة آلاف عدّاً في كل نهار، يطبع أبو رشيد خاتمه على أقفيتها جميعاً. وفي وقت الراحة، بُعيد الظهر، كان أبو رشيد يسمع كل يوم جلبةً وهدير محركات في باحة المعمل. فينظر من النافذة ليرى الشاحنات إيّاها. عشر شاحنات شاسعة، كل شاحنة بثلاث طبقات وفي كل طبقة مائة خنزير. فيكون الصافي ثلاثة آلاف خنزير عليه أن يفرغ منها قبل المساء. أمام هذا المنظر، كان أبو رشيد يرفع راحتيه نحو السماء ويشتكي:

– يا ربّ! أما يزال في دنياك خنازير؟

وحين كان ينظر إلى جسده مساءً في مرآة الحمام، كان يرى أن ذراعه اليمنى باتت أضخم عضلاً من اليسرى. أما زوجته فكانت في بنت جبيل متقاعدة. ومرة خطر لها أن تكتب إليه، تسأله عن عمله ما هو ؟ ولم يتأخّر جواب أبي رشيد في الوصول إليها مختوماً:

مختار، يا بنت الخنزير، أنا مختار.

عاد أبو رشيد ليشيخ في بنت جبيل، وسط أسرته، منذ أعوام عدّة. ولكنه كان، بين أهالي بلدته، في ديربورن، قبل أن يغادرها، شيخ الشباب وأظرف الظرفاء. كان محميّاً بينهم من أية مهانة قد يفترض أنها تترتب على طبيعة عمله. بل إن مجالسته كانت تشتهى، في أي بيت، وكان، وهو مستحقّ، زينة السهرات. ومردّ هذه الحماية إلى أمرين: الأول أميركي، وهو أن العمل عندهم، أياً كان، لا يهين صاحبه ولا يصمه وصمة تلازمه أينما حلّ وأن الوجاهة عندهم غير مقرونة بالبطالة وأن المواطنية مرجع قائم حقيقةً يقرن بين أقدار الناس في مجالات وإن تباينت في أخرى. والأمر الثاني لبناني وهو أن جماعة المغتربين حافظة لمقاييسها الأصيلة، وهي متنوعة وليس العمل

أهمها. بل إنه يكاد أن يكون عارضاً فيها بحيث يظل يستقيم الفصل بينه وبين المكانة. أنت هنا طبع وخلق وأصل وأشياء أخرى ولست مجرّد مهنة. ولكن العمل يبقى، مع ذلك كله، أساس المعاش و "يحرّر"، بسبب الأميركية الغالبة على مقاييسه، من سطوة الجالية بالمعنى الذي يُقال فيه إنه " يحرّر" المرأة من سطوة الرجل. وأجلى مظهر لهذا التجاذب بين " الاستقلال" الممكن عن "الجالية" والالتحاق المستمر بها، تجده في مسألة "الزعامة" التي سلفت الإشارة إليها. فهذه حقاً مسألة شائكة.

ابن أختي يحبّ أن يردّد مثلاً أميركياً: " كثير شيوخ القبيلة وقليل هنودها! "

التصوير

في المطار، عند وصولي، صوّرتنا أختي المتأمركة. وفي المطار، عند رحيلي، صوّروني مع كل واحد (حتى مع الذي ظل يغلبني في الشطرنج طيلة صيف 1976) ومع كل اثنين ومع كل عشرة. وفي المركز الإسلامي ماطَلَ المنظّمون في السماح لي بارتقاء المنبر إلى أن أحضروا آلة التصوير. بعد المحاضرة صوّرونا أيضاً. وفي العرس صوّروا كل شيء. وحين دخلنا منزل جيراننا القدماء، ذات ليلة، وجدناهم يعرضون على التلفزيون شريطاً صوّر في عرس لا علاقة لهم به. فهذه الأشرطة تباع ويشتريها من يرغب من المدعوّين إلى كل عرس. قلت: لعلهم يتدربون لأن في البيت عريساً وطقوس العرس هنا معقدة. ويوم عيد الشكر اجتمع شملنا عند أختي المتأمركة في كالامازو، إذ حضر من هو مقيم في تكساس ومن هو مقيم في كاليفورنيا ومن كان في جهة أخرى من ميتشغان وذكرنا الذي لم يحضر من جورجيا وأكلنا مزرعة من ديوك الحبش وصوّرونا أيضاً. ولا حاجة إلى ذكر الاهتمام بتظهير الأفلام لي قبل سفري، فهذا من أبواب العناية التي شملت كل شيء. ولم أحصِ الذين سألوني إن كنت أحمل، في جيبي ، صوراً لزوجتي وابنتيّ وهو أمرُ لم يخطر لي أن أفعله يوماً.

ها هنا تحتاج حياة الغرباء إلى احتفال يبني للغرباء شيئاً من ذاكرة مقدّسة. يقدّسون لقاءاتهم ويجمعون شتات أيامهم في لحظات يكون لها طابع غير عاديّ أو يرتجلون لها هذا الطابع. والصورة تثبّت طابع اللحظة الاستثنائي وتدرجها في حالة الاحتفال. كأنما هم يصِلون بالصور حياتهم هنا بحياتهم السابقة في بلادهم، وقد باتت في ذاكرتهم شريطاً من الصور انقطع، ذات يوم، أي سلسلة من اللحظات المقدّسة. وكأنما هم، إذ يجمعون الصور إلى الصور، في الغربة، يوضبّون حياتهم هنا لتتسع لها الحقائب ويحملوها معهم ذات يوم... ذات يوم ويقفلوا راجعين.

أما أختي المتأمركة فلا تحسِن فن التصوير إلا مشافهة. تترك محرّك الكاميرا دائراً وتتمشى ملوّحة بها تحيي العابرين. لم تجد أعراباً في كالامازو، فلم تفتح مضافة شأن أختها المقيمة في ديربورن، بل أدارت مع زوجها محلاً للخياطة. ناس للسيف (الذي يليق حمله بأختي الكبرى) وناس للضيف، وأختي المتأمركة لغدرات الزمان. هكذا توزّعن كما يتوزّع شبان الأسرة الواحدة، في لبنان، بين مختلف الميليشيات. وفي شريط المطار شاهدنا الأعمدة تميل يمنة ويسرة و الأرضين ترتطم بالسقوف والوجوه والسيقان تعبر خطفاً فلا يدركها لمح البصر. كان مُسلّياً أن يسأل بعضنا بعضاً من هذا الذي عبَرت كتفه الشاشة ومن هذه التي جمدت العدسة فجأة على مقدّم حذائها. وحين

تنازلت أختي عن آلتها لأحد أبناء العم سمعنا محاضرة طويلة، حفظها الشريط، شرحت خلالها أختي، بمنتهى الدقة والتفصيل، كيفية استعمال الآلة التي كانت تستعمل نفسها في هذه الأثناء. أيقنت، إذ ذاك، أن الأميركيين الذين علّموا أختي هذه الخصال هم شعب العابر. يبنون مدناً ويهدمون مدناً ويغيّر واحدهم بيته عشرين مرة ولا يقيمون هياكل وأنصاباً إلا لله وللدولة. أيقنت أيضاً أن محبة العابر هي التي جعلت الأميركيين أرباباً للسينما في هذا العالم.

الآغا

في العام الماضي بَعث الرئيس رونالد ريغان برسالة تهنئة إلى الآغا لبلوغه الخامسة بعد المائة. ولعشرين عاماً خلت كان الآغا يحضر في السابعة من كل صباح ليفتح مضافتنا في بنت جبيل –وكانت مضافته أيضاً لأن والدي ابن عمته– ويشعل نار الفحم لنارجيلته وللقهوة. فالآغا أقدم عشيرٍ حيّ لروّاد تلك المضافة، في أيامها، وأوثق الشهود على وقائعها. وهو عشير أعمارنا جميعاً أخذته منا أميركا، حين كان يغازل المائة، كما أخذت بعضنا من بعض، هي ونوازل الدنيا.

وابن أختي الذي لم يقضِ في لبنان (في بيروت) إلا سنواته الخمس الأولى ولا رأى بنت جبيل إلا ربيعين من سنّيه الأربع والعشرين يحبّ الآغا حبّاً جمّاً. يجالسه ساعات ويُهرع إليه لينقله إلى حيث يشاء في السيارة السوداء التي يسوقها كما يسوق قدميه. لذا يحفظ ابن أختي، في رأسه الفتيّ، سلاسل قرابة وأخباراً للصراع العائلي في بنت جبيل، خلال الثلاثينات والأربعينات، لا أحفظها أنا ولا كثيرون ممن يكبرونني سناً. عليه سأجد من أسأله في هذه الأمور إذا عزمت على الكتابة عنها، في مستقبل الزمان، وعزّ لقاء الآغا.

الآغا معتزّ برسالة ريغان. لكنه إذا روى خبرها مرة فهو يروي ثلاث مرات خبراً آخر. وهو أن والدي صحبه يوماً إلى احتفال كبير في دير مشموشة وانتهر العسكر الذين كانوا يريدونه أن يدخل القاعة وحده قائلاً: "هذا ابن خالي!". وحين كاد ميعاد الصلاة أن يفوت، أخذ الرهبان الآغا إلى غرفة صلى فيها ووقفوا هناك على خدمته. وحين فرغ قال له أحدهم: "ابن عمتك ينتظرك يا أفندي". فضحك الآغا وقال: " أنا لستُ أفنديّاً، يا محترم! أنا آغا." ثم عاد إلى قاعة الاحتفال فأجلسه والدي في مقعد رئيس الجمهورية الذي كان قد غادر المكان ولم يجلس أحد في مقعده. إي والله! هذا ما جرى. لم يبع الآغا مضافتنا بالمقهى العربي في دكس، ولا باعَ مقعد رئيس الجمهورية اللبنانية برسالة من ريغان.

البيوت

أزعم أنني بتّ أعرف كيف هي البيوت في ديربورن لأنني زرت منها، في خمسة أيام أكثر من مائة وخمسين. اقترحت عليّ هذه الجولة العجيبة أختي ذات المضافة. واستسغت المبدأ، من جهتي، لأن لطف الناس هنا لا يوصف، ومبادلتهم إياه تستساغ. لكنني خشيت أن نزور بيتاً وننسى اثنين أو أن لا يسع الوقت المتبقي إنْ وسعت الذاكرة. قالت أختي: " المدينة صغيرة وأنا أعرف بيوت الجالية. نمشّطها شارعاً شارعاً، ومن كان قد زارنا زرناه." هكذا كان، ولم نضطرّ إلى السؤال عن بيت فلان إلاّ أربع مرات أو خمساً، وبسبب الظلام في الأغلب. وأما البيوت البعيدة القليلة فزرتها مع متطوّعين آخرين.

يقضي اتقاء الانتظار في الصقيع أمام الباب الرئيسي أن تدخل البيوت من بابها الجانبي، وهو باب الطابق السفلي (الBasement) الذي يقضي فيه أهل البيت سحابة نهارهم ويستقبلون فيه أقاربهم وأصدقائهم أيضاً. ولما كنتَ ضيفاً قادماً من بعيد، فإنهم يصعدون بك سلّماً يفضي إلى صالون متصل بغرفة للطعام هي جزء من المطبخ أو مستقلة عنه. والسلم ينعطف ويكمل صعوده إلى طابق أعلى تقدّر أن فيه ثلاث غرف للنوم أو نحوها. أما الكاراج ، وهو يتسع عادة لسيارتين، فملاصق للمنزل بحيث يسع السائق أن يدخل إلى السيارة مباشرةً من الطابق الأوسط. وتحدِق بالبيت مرجة أمامية صغيرة يحاذيها طريق الكاراج، ومرجة خلفية قد تكون أوسع من أختها بقليل. هذا هو الرسم العام. لكن البيت قد يكون مسطحاً على مساحة واحدة، فيحتل حيّزاً من الأرض أوسع. وقد تقتطع من الطابق السفلي غرفة مخصصة (نظرياً) للخادمة ومرافق أخرى. وقد توجد في الطابق الأوسط غرفة لجلوس العائلة وأخرى لمنامة الضيوف، وفي العلوي أربع غرف للنوم لا ثلاث. وأما الكاراج فهو أيضاً مستودع للحطب وللعُدَد المختلفة والأثاث المتروك ولُلعب الأطفال.

على الجملة، تبدو بيوت ميتشغان وكأنها تنطلق من حدّ أدنى – يعتبر ممتازاً – إذا قيس بشقق المدن وبيوت القرى في لبنان – ثم تتوسع تبعاً ليسار أصحابها أو لحاجاتهم أو لمزاجهم. أقول بيوت ميتشغان لأن السكن العربي، في نيويورك مثلاً، أدنى مستوى بكثير، على ما أعلم. والبيوت والسيارات (وغيرها) تشترى بالتقسيط، طبعاً. وقد لا تعيش السيارة إلى أن توفى أقساطها وقد لا يعيش صاحب البيت إلى أن يفي أقساط بيته. على أنه يكون قد استمتع بدفء المقام وسهولة

الانتقال، لأن البيوت والسيارات، في أميركا، زينة الحياة الدنيا. ثم إن البيت رأس مال أيضاً. حين يبلغ العامل هنا سنّ التقاعد ويكون أولاده قد فتحوا بيوتاً لهم ويأخذ في التفكير بالعودة إلى لبنان – إن طاوعه قلبه على ترك أولاده – يكون عنده البيت يبيعه ومدّخرات قليلة وراتب التقاعد الذي يكفيه في لبنان ولا يكفيه في ميتشغان. ويكون أمامه لوعة فراق الأولاد يحملها معه بعد أن حمل ، في الغربة، لوعة فراق الأهل والبلاد. البيوت عامرة إذن ، وأما الحياة فهي خراب كبير على ما يرى صديقي ن.

وفي البيوت أثاث يتفاوت ذوقاً وغنى. كثير من الخشب ، يبدأ من الجدران، وكثير من النحاس، ملمّع وموضوع أمام المواقد وعلى المناضد. والذين يمضون سحابة اليوم في الطابق السفلي يبقون مقاعد الصالون أحياناً ملفوفة بالمشمّع جديدة، تقرقع حين يجلس عليها الضيف، وكأنما هي لمجرّد الاقتناء لا للاستعمال، تشهد أن أصحابها كدحوا وجنوا كما تشهد صورهم المعلّقة على الجدران أنهم تزوّجوا وأنجبوا. وأكثر من يضيق بهذه البيوت وبطوابقها السفلية الأمهات اللواتي غادرن ريفنا مسنات فلم يتعلّمن قيادة السيارات. فهن لا يخرجن إلاّ إذا سمح وقت الابن (الذي هو ربّ المنزل) بأخذهن في زيارة. وربة البيت نفسها، حين تخرج لتتسوّق، لا تحمل حماتها (أو أمها) تحت إبطها بالضرورة. بل هي قد تكون مضطرة إلى تركها لرعاية الصغار. لذا حصل أن عادت أمهات عديدات ليعشن وحيدات في بنت جبيل أو في بيروت بعد إقامة في ديربورن ، طويلة أو قصيرة. فحريّة التجوّل بين الجارات، في بنت جبيل، لا تقدر بثمن ولا يستطيع الاحتلال الإسرائيلي حيالها شيئاً. والطوابق السفلية، في ديربورن، أشد قسوة من السكن البيروتي نفسه، على اشتداد قسوته في الحرب. ففي بيروت شقق على الأقلّ والبناية والشارع الواحد عالم صغير وكل الجيران ناطقون بالضاد.

في دكس بنايات بشقق، ولكن مداخلها كئيبة ومصانع فورد تغطي دكس بضباب دائم، فلا يكاد يخطر لك أن تدخّن. ودكس حي من ديربورن يقيم فيه فقراء من العرب وغيرهم وينتشرون منه إلى أحياء أخرى حين تتحسن حالهم أو يبقون فيه بحكم تعوّدهم إياه وقربه من أعمالهم. لعل الحموات أسعد حالاً في دكس، لا أدري، لكنّه غير مناسب لصحة الصغار. اللوحات العربية على جباه المتاجر كثيرة هناك، وكل شيء " حلال" تجده هناك. بعض الخبثاء يزعم أن تجار دكس يوحون إلى الناس أن السمك عندهم مذبوح ذبحاً حلالاً ... وحتى الخسّ. وفي ديربورن هايتز بيوت ليس فيها طوابق تحت الأرض. ولكن يندر أن يكون فيها حموات. فإن ديربورن هايتز حيّ الذوات،

والعرب فيه قلّة. بعض أغنياء الجالية آثر الإقامة في ديربورن نفسها حتى لا ينعزل وأسرته عن حرارة الجوار.

نساء و رجال

لم نضرب مواعيد لزياراتنا الكثيرة، وإلاّ لكُنّا احتجنا إلى حاسوب وأمانة سرّ. كنا نغادر البيت في نحو العاشرة صباحاً ونعود إليه بعد العاشرة ليلاً، بعد أن نكون مررنا به، ساعة، في الخامسة بعد الظهر، لتناول الغداء الذي هو عشاء أيضاً. لذا استقبلتنا ربة البيت، في اكثر الحالات، لأن زوجها كان في عمله.

وسيدات الجالية، في ما رأيت وسمعت، من طراز رفيع من البشر، مصونات من معظم العيوب التي يبتلى بها بعض رجالهن وأبنائهن أيضاً. صحيح أنهن يهوين "الشابينغ" (التسوّق) التي يبالغن أكثر من الأميركيين في قلب واوها ألفاً ليتيسَّر لهن تخفيف الباء. تقنعهنّ فلسفة التجارة الأميركية التي تزعم لك أنك عندما تشتري فأنت لا تنفق بل تربح...أو توفر في أقلّ تقدير. فيتابعن الإعلانات الخاصة بتنزيل الأسعار وبمبيع الأشياء المستعملة في كاراجات المنازل وما إلى ذلك. ويتنزّهن أحياناً في المتاجر، لا يقصدن شراء شيء معين بل ما قد يتفق أن يعجبهن. الرجال يقولون: إنهن يخربن بيوتنا بـ "الشابينغ". ولكن الرجال مخطئون لأن النساء، على الحقيقة، يعمُرن بيوت الجالية. فهن يدبّرن كل ما تحتاج إليه صيانة البيت وتسيير أموره. وهن يسهرن على تربية الأولاد ويتابعن أحوالهم في المدرسة وفي المدينة التي تحاصر أهلها الجريمة المنظمة وتجارة المخدرات.

وهنّ، إلى ذلك، منفتحات على ما حولهن، يحميهنّ القانون الأميركي في بيوتهن ويمنحهن ثقة واضحة بالنفس. هذا بينما يمدّهن التلفزيون الذي يواظبن على مشاهدته أكثر من الرجال، بثقافة لا يُستهان بها، سياسية وصحية و ... تاريخية أحياناً وغير ذلك. ويسعفهنّ تجوالهن في المدينة – إلى التلفزيون – في تحصيل معرفة باللغة الإنكليزية تفوق ما يتحصّل لأزواجهن في كثير من الحالات.

الرجال يكدحون وينامون. يفاضلون بين سُبْحاتهم ويتنافس بعضهم في الزعامة. وبعضهم لا يرى بعض أولاده إلاّ في آخر الأسبوع، لأنه حين يعود إلى البيت يكونون قد ناموا وحين يستيقظ يكونون قد ذهبوا إلى المدرسة... أو إلى العمل. بعض الرجال لا يكدح: يُقنع إدارة المؤسسة بأن ألماً في ظهره يمنع عليه العمل. ثم يقعد في المقهى أو في المضافة يستعيد قصصاً جديرة بالآغا ويعيش – عيشة غير واسعة – من مال الضمان الاجتماعي. بعضهم أيضاً ملقى في السجن لأنه جرّب حظه في تجارة المخدرات فضحّى به كبارها أو لأنه أحرق متجره طمعاً في مال التأمين وانكشف أمره. والنساء يواجهن هذا كله صابرات وقادرات. يرعين الأسرة. وحين يشبّ الأولاد ويقيّض لهم أن يتوزعوا متّحدين مهمّاتِ مشروعٍ ما يكبر المشروع بسرعة ويصير الأبُ والأم ملكاً وملكة. هذا التضامن بين الأخوة هو سرّ نجاح أكثر الناجحين الذين قابلتُ في الجالية. أما حين لا تسير الأمور على هذا المنوال فإن الأم تواجه خيبتها وترى رأيها في ما يسعها عمله. وفي النجاح والخيبة لا تخلو حياة ربة البيت من غنى ولا تخلو عيناها من حكمة.

كالامازو

في كالامازو لعبت بالورق. هم ثلاثة يبحثون – من سنوات – عن رابع ، وأنا هبطت عليهم من السماء. أدركت أن اللعب بالورق شأنه شأن ركوب الدراجة، في العبارة الفرنسية، لا يُنسيكَهُ مرّ السنين. كانت أعوام لا أحصيها قد مرّت منذ أمسكت بورق لعب آخر مرة. ولم يكن بي شوق استثنائي إلى الطرنيب. ولكنهم كانوا سيطردونني من المدينة لو رفضت. تنازلت إذن ولعبت. وتنازلوا وقبلوا بأن تكون اللعبة هي الطرنيب. وهي لعبة محتقرة في عين المتمرّسين ولكنني أكاد لا أحسن سواها.

كالامازو مدينة صغيرة (بالمقياس الأميركي) تقع على مسافة مائة وعشرين ميلاً إلى الغرب من ديترويت أي في منتصف الطريق، تقريباً، بين هذه وشيكاغو. فيها مصانع "أبجان" أحد عمالقة صناعة الدواء في العالم، وفيها جامعة ميتشغان الغربية. ولي فيها شقيقتان: الكبرى التي للسيف (ولغيره أيضاً) والمتأمركة التي لغدرات الزمان، وتأمركها له حدود. ولي فيها ابن عمّ أيضاً.

وليس في كالامازو جالية لبنانية ولا عربية بمعنى الكلمة. بضعة بيوت. لذا لا يتيسر لصهريّ الاثنين ولابن عمّي أن يضعوا أيديهم على رابع حين يشاؤون . فحيناً يستدرجون رابعاً لا يثبت من الجالية الضيقة. وحيناً يكون الرابع ضيفاً عابراً – شأن العبد الفقير– يتنافسون في إطعامه وكسوته(لأن اثنين منهم خيّاطان) وفي الترويح عنه بالنزهة في المدينة الرائعة وحول بحيراتها لقاء لعبة بريئة كلياً بالورق يقطّعون بها سهرة تخلو، إذ ذاك، من كل هم.

أختي المتأمركة لا تحتمل دخان السيجارة ولا نبات ميتشغان في بعض الفصول. تهرب من الزهور التي تضيّق أنفاسها إلى الباهاما. وأما الدخان فلا يبدو قانون "الهواء النظيف" الصادر مؤخراً كافياً لحمايتها منه. لذا جاءت إلى بيت أختي الكبرى بأحدث مروحة وجدتها لتنقية الهواء ومنعت التدخين في بيتها هي. أنا فضّلت الهواء المنظَّف على الهواء النظيف، فنزلت عند أختي الكبرى. وكل ليلة كانت أختي المتأمركة وزوجها يأتيان ليسهرا معنا، فندير المروحة. ويحضر أيضاً ابن عمي وزوجته – وبيتهما على مرمى حجر – فنلعب بالورق. وأنا نفسي وجدت مجالاً للوم ابن عمي

وزوجته على إفراطهما في التدخين. و زوج أختي المتأمركة لا يدخن في بيته ولا في محله ، لكنه يدخن حين يلعب بالورق. عليه تنقسم الغرفة الفسيحة إلى شطرين غير متساويين : ركنٌ ضيق للرجال ، يتسلون فيه، وشطرٌ فسيح للنساء يتعاطين فيه الحكمة.

أميركا ، أميركا

حكمة نسائنا في ميتشغان، أذكرها مرة ثالثة. كانت بنت العم أمّ ف. (وهي زوجة ابن العم م، ثالث الثلاثة)، تنقلني في سيارتها المفتوحة المنافض إلى وسط كالامازو التجاري لأتنزه وأمارس "الوندو شابينغ"، أي استملاك الواجهات بالنظر. وما أدري ما الذي حملها على اختيار ذلك الصباح النادر الدفء في تشرين ميتشغان لتلخّص لي عقل أميركا البارد.

– إنهم يأخذون منّا أولادنا ، قالت.

– من هم ، كفانا الله شرّهم ؟ سألت.

– الأميركيون، قالت. أميركا. نرى العجوز منّا يحضر إليها معدماً وقد جاوز السبعين فنقول: ما أعظم أميركا وما أكبر قلبها! ما الذي قدّمه لها هذا حتى تطعمه وتكسوه وتطبّبه وتيسّر له أمر الحصول على بيت وسيارة؟ أنا أقول لك ما الذي تنتظره أميركا لقاء هذا. تنتظر أن يقدّم إليها العجوز أولاده. هي تعلم أن العجوز سيبقى لبلاده ولن يكون لها هي ولو أعطته مال قارون. وهي لا تريده على كل حال. تريد أولاده. فإن كان عظمهم قد صار قاسياً، هم أيضاً، فأولاد أولاده. تستطيع أميركا أن تنتظر ثلاثين سنة، تكون بعدها قد ربّت جيلاً يُلائمها وحصلت على ما أرادت إلى مائة جيل. بلادنا تبيعنا ونحن نبيعها. هي تطردنا ونحن نبيع أولادنا لأميركا ببيت وسيارة ومعاش إلى مائة جيل.

كان من الفظاظة بمكان أن أقول لابنة عمي أن الغول الذي تخشى من معدته على ذراريها المقبلة هو غول حقاً ولكنه لا يريد أذى بالذراري بل يتبنّاهم وإن آذى آباءهم. وكان من الفظاظة بمكان أيضاً أن أقول إنها لا تملك غير الاحتيال على الغول ما عاشت لتنجو منه بأولادها. وأما أولاد أولادها فقد لا يجدون أنفسهم أشقياء بأميركيتهم وقد لا يكون عليها بالتالي أن تشقى عنهم سلفاً وعن الأجيال التي تليهم. وكان من الفظاظة بمكان أخيراً أن أقول لها إنه قد يسع هذه الأجيال أن تبقى على الإسلام مثلاً، إذا يسّرت لها الأجيال السابقة مؤسسات إسلامية تناسبها، ولكنها لن تبقى "لبنانية"، في أغلب الظن، ولا "عربية"، إلا بقدْر ما يعتبر البولنديون بولنديين، في أميركا. أي بقدْر ما هم جماعة قد تسعفها عصبيتها في خوض معركة الانتماء إلى المجتمع الأميركي ولكنها لا تستبقي لها صلة يعتدّ بها فعلاً ببلادها الأصلية. كان كل ما يمكن أن أجيب به ابنة عمي إما فظاً

وإما سخيفاً. فآثرت السخف وقلت لها أشياء ليس تحتها كبير طائل. على أنني أيقنت أنها ما دامت تحمل على رأسها هموماً من هذا العيار، فهي لن تترك التدخين أبداً.

وذات يوم في الباهاما، اعتدلت أختي المتأمركة (التي حملتني إلى هناك في رحلة أضرب صفحاً عن حديثها هنا) وحوّلت بصرها عن شاشة التلفزيون وسألتني إن كنت قد قاربت الانتهاء من كتابة المحاضرة التي كان عليّ إلقاؤها في جامع ديترويت. ثم أردفَت:

- إنهم يبعدون أولادنا عنا. إنهم لا يريدونهم أن يبقوا مسلمين.

لم أسأل من هم؟ لأنني كنتُ أعدّ المحاضرة لألقيها في المركز الإسلامي، ففهمت أن حديث المحاضرة هو الذي استدعى الملاحظة، سألت: كيف ؟

قالت أختي:

– في ما مضى كان جميلاً منظر الأولاد في قاعات المركز الإسلامي. يتنافسون في خدمة الجامع ويُعدّون، مع أهلهم، غداء الأحد ويصلّون. اليوم باتوا يرفضون أن يدخلوه. والأهل أيضاً قلّ تردّدهم عليه لأن شمل العائلة يحسُن أن يظل مجموعاً نهار الأحد. وما دمنا في أميركا، فالأهل لا يملكون أن يسوقوا أولادهم إلى الجامع بالعصا. الولد الراشد هنا، إذا خاشنْتَه، يهجر البيت، وقد يصطاده تجار المخدرات وقد يضيع. و حتى أنا لم أعد أرغب في زيارة الجامع أصلاً لأنني لا أطيق أن ينظر إليّ أيّ نكرة شزراً إذا جلست بجانب زوجي إلى المائدة. كان المنظر جميلاً، وكان الأولاد – وهم لا يجدون فرصاً كثيرة للتعارف، في هذه البلاد التي يضيع فيها الجمل – يتعارفون في قاعات المركز، وهم مع أهلهم. وإذا تمّ النصيب، تتزوج الفتاة المسلمة من الفتى المسلم. هل هذا حرام؟

– بل الحرام غير هذا، قلت.

– إلى أن فُتح في المدينة مركزٌ ثانٍ للمسلمين. وأخذ المركزان يتباريان في التزمّت. فُرض الحجاب على النساء الداخلات. وعُزل الذكور عن الإناث في القاعات. وصار الفتى، إذا وقف بجانب أخته، يتحسّب من الإحراج والإهانة. ووُجد من نصّبوا أنفسهم أئمّة على خلق الله ونحن

نعرفهم واحداً واحداً ونعرف سيرتهم في المدينة. هذا ما جرى. وحين يُحال بين أولادنا والجامع، فهم ينسون دينهم أو لا يتعلمونه أصلاً وقد يذهبون إلى مواضع لا نرضاها. وحين لا يتعارف أولاد المسلمين، في ما بينهم، فإنهم قد يتزوّجون من لا نعرف له ديناً ولا يقيناً. أنا ذاهبة لسماع محاضرتك يوم السبت. ولكنني سأجلس بجانب زوجي. وإذا فتح ابن أنثى فمه معترضاً، فسأجعله يحسب أن أمّه لم تلده. نحن هنا في أميركا!

قلتُ في نفسي إن عليّ أن أعيد النظر في التوزيع الذي اعتمدته لشقيقاتي. فالكبرى التي أوكلت إليها أمر السيف، أنا – وغيري – في بيتها، أعزّ الضيوف. وهذه التي أسمّيها "المتأمركة" وأدّخرها لغدرات الزمان تنتضي الآن سيفاً تذبّ به عن حياض الإسلام!

نحن في أميركا إذن وأولادنا يكبرون. نحن في أميركا، وهذا ما كان المركز الإسلامي يراه جيداً قبل أن يغيّر عينيه. وفي أميركا كتب جبران يقول: "أولادكم ليسوا لكم... " ما أجرأك يا رجل، وما أشدّ غرورك! وفّر علينا لَغْوك في أمر "الحياة" وقلْ لنا لمن هم إذن؟

يوسف و" السومت "

ركبنا السيارة، أنا ويوسف، وأخذنا نخابر. كنا ميمّمين شطر "السومت" لنتغدّى. وكانت هذه أول دعوة إلى الغداء أقبلها في ديربورن لأنني خشيت أن لا تعرفني زوجتي في بيروت إن أنا تركت رشاقتي – النسبية جداً – فريسة للكرم العاملي. وكنت قد عانيت، مُتجلّداً ، طيلة إقامتي، منظر البقلاوة والمعمول والمشبّك، وهي تستفزّني، على المناضد، في كثير من البيوت. وكنت قد عانيت أيضاً، في الأيام الخمسة الأخيرة، منظر التمور واللوز والفستق الحلبي وهي تتقدم نحوي، عشرات المرات، في صحاف كبيرة.

كان خطيراً للغاية على سمعتي (التي فوجئت بها قاعدةً تنتظرني، ولم أكن تعبت في صنعها ولا أرسلتها في طائرة شحن) أن أقبل دعوة للغداء لم أكن قبلت سواها. غير أنني كنت مسافراً الغداة، فقلت أتغدى وأهرب والستر على أصحابي وعلى الله. ثم إن الغداء مع يوسف وأصحابه أجْرٌ ونَجْر لأن النية كانت معقودة على تداول مصالح عامة لم يكن قد تيسّر لنا وقت لقتلها بحثاً حتى ذلك اليوم .

هذا و"السومت" بعيد عن بيت أختي أفقياً وعمودياً. هو مطعم دوّار في مبنى "الرنيسانس" لؤلؤة ديترويت الضخمة وقلبها النابض بالتجارة. واسمه(الذروة) يشير إلى مكانه في الدور السابع والسبعين، وهو الأخير من فندق "وستن" الذي يتوسط أبراج "الرنيسانس". ومنه يشرف المرء على جهة بعد جهة من ديترويت المترامية أمام نهرها الكبير وعلى مدينة وندسور الكندية الممتدة وراء النهر وعلى جانب من بحيرة أري. كنت ويوسف ذاهبين إلى الذروة إذن ودونها، من بيت أختي، ثلاثة أرباع الساعة بالسيارة. وكان الأمل كبيراً في أن يكون هذا المطعم هو ما يسمى عادة مستوى المسؤولية.

أما سيارة يوسف فهي بالغواصة الصغيرة أشبه. صاروخية الشكل، ضيقة، كثيرة الأزرار. ومن الأزرار اثنا عشر زراً، على الأقل، لجهاز الهاتف وحده، وأزرار أخرى للجهاز الذي يَنذرك بوجود الشرطة في الجوار، فتحاذر المخالفة. وأزرار أخرى لأشياء أخرى. عليه خابرْنا المطعم ومحطات الوقود التي ليوسف وأختي وابن عمي وزوجة يوسف وخابرَتنا الشرطة (مخابرة ودّية). ووقع أمامنا على الطريق السريع، حادث سير أخّرنا دقائق، فخابرْنا بعض عباد الله خطأً واعتذرنا.

ثم وصلنا إلى "الرنيسانس" ولم يبق علينا من الرحلة إلا بُعدها العمودي. كانت أختي الكبرى قد جاءت بي إلى هنا قبل شهر فحفظتُ في ذاكرتي – بين ما حفظت – صورة السجادة الكبيرة ذات النقش العجمي في ردهة الفندق حيث باب المصعد. ولم يكن مضى وقت طويل على دخولنا المبنى حين لمحت السجادة، غير بعيد إلى يسارنا. وكان يوسف يجري أمامي جري المتوجّه إلى وديعة يعرف وحده أين وضعها، فلم أجرؤ – وأنا أجري خلفه– على البوح بسابق وقوفي فوق تلك السجادة. قلت: يوسف أعلم مني، لا شكّ، بأقرب الطرق إلى المصعد. ثم درنا ، بعد مسيرة طويلة، فلمحت السجادة، غير بعيد إلى يميننا. قلت: ها نحن وصلنا . لكن يوسف واصل الجري ثم انعطف وصعد – وصعدت خلفه – سلّماً آلياً، ثم انعطف إلى آخر، ثم توقف فجأة. فأدركته وقد فرغ من طرح سؤال على عابر أخذ يهدينا سواء السبيل إلى المصعد بكل أناة وتفصيل. قلت: نحن تائهان إذن يا يوسف. ثم انطلق وانطلقت خلفه، وما لبثنا أن وجدنا السلم الآلي الذي أشار اليه العابر، فتوقفنا، وإذا به متوقف وعليه جماعة يصلحونه. قلت، وقد تخففت بعض الشيء من سطوة يوسف: علينا بالتالي. وفي الطريق إلى التالي سألت عابرة كانت تحثّ الخطى: أين "السومت" فقالت: فوق! وانتظر يوسف حتى جفّ عرق الخجل عن جبيني من دقة هذا الجواب ثم استوقف عابراً ثالثاً، وكنا قد هبطنا السلم التالي ومشينا شوطاً في رواق لم نره من قبل. ردّنا الرجل على أعقابنا، فمشينا شوطاً إلى حيثُ أشار. وما أن انعطف يوسف متجهاً مرة أخرى نحو المجهول حتى انطلقت من حنجرتي صيحة أدركت لضعفها أنني موشك على السقوط جوعاً وإعياءً : يا يوسف! ها هي السجادة.

في سيارة يوسف، كنت أغمض عينيّ بين مخابرتين وأهمس لنفسي: نحن أميرالان يابانيان ذاهبان إلى بيرل هاربور. وأما "السومت" فقد وصلنا إليه جنديين مهزومين تاها مدة في أرض العدو. حتى أنني نظرت إلى نفسي وإلى يوسف ونحن نحيّي أصدقاءنا الخمسة، لأرى إن كان تمزق شيء من ثيابنا في الطريق. كنا قد ضيّعنا في الأروقة والردهات نصف ساعة من أثمن أنصاف الساعات. وذلك أن أصدقاءنا كانوا قد تغدوا وجلسوا يدارون قلقهم علينا بشرب القهوة. وأما المطبخ اللعين فكانت أبوابه مغلقة من الثالثة وكان غلمان المطعم الأشاوس قد توقفوا عن تقديم الغداء. فطلب لنا الأصدقاء قهوة وأخذنا نجاذبهم، بسواعدنا الضعيفة، أطراف الحديث.

إشارات ناقصة

سألوني في " السومت": كيف وجدت الجالية؟ قلت في سرّي: شبعانة والحمد لله. ثم أوجزت لهم – دون ذكر المصدر – بعض ما تعلمته من نسائهم (ومنهم هم أيضاً). قلت:

– نحن في أميركا، ولا أحد بينكم يملك أن يسوق أحداً بالعصا. تظهرون مصرّين، إجمالاً، على أن تظلّوا شيعة ومسلمين، عرباً ولبنانيين، والواحد منكم يجهد، مخطئاً أو مصيباً، في اختيار الأساليب والوسائل، ليحفظ هذه الهويات المتداخلة تحت سقف بيته. خارج نطاق البيت الواحد أيضاً، تلتقون وتحتفلون. تصلّون في الجامع أو تدبكون في العرس. ولكن ما أن يتجاوز الأمر هذا الحدّ حتى يُطرح مشكلُ المراتب. فالمراتب موضع خلاف يبدأ بترتيب الجلوس في أي احتفال. على أن الخلاف يدارى باللياقة في هذا النطاق. وأما المبادرة إلى عمل يقتضي، بين ما يقتضي، توزيعاً مؤقتاً للمهام، وأما إنشاء مؤسسة، وهو يفرض توزّعاً أطول مدة بين المراتب، فيتعثران عاجلاً أو آجلاً، بحسب الحالات. مردّ هذا إلى كون المراتب غير موزّعة سلفاً، هنا، شأنها في جبل عامل. المراتب هناك موروثة، ولا يغيّر توزيعها إلاّ تحوّلات اجتماعية يستغرق حصولها عشرات السنين. والحرب الأهلية نفسها لم تزعزع نسقها العام، وإن تكن هزّتها هزّاً بالغ العنف. والمراتب في جبل عامل ملزِمة أيضاً، وكلفة الخروج عليها باهظة، بعضها العزل وبعضها ضروب أخرى من الأذى. وهذا لا يحتمله إلاّ أفراد تقيّض لهم ملاجئ غير الجماعات التي تنتظمها المراتب التقليدية. وكثيراً ما يكون خروجهم نسبياً فيستبْقون لأنفسهم، مختارين أو مكرهين، مقاماً داخل الجماعة وخارجها معاً.

وأما المهجر فلم تحضر إليه جماعتكم تامة ولا حضرت معها مراتبها مقررة للأنصبة وللأشخاص. ولا أنتم معزولون هنا، مهما تسوّروا أنفسكم، عن الاعتبارات التي ينصبها الوسط الأميركي في وجوهكم. وليس أقلّها إمكان تدخلكم في سيْر مؤسساته الذي يقدّم إليكم في صورة الضرورة والصعوبة معاً، في صورة الإغراء والرفض معاً. وراثة المراتب، هنا، لا يستقيم اعتمادها بحذافيرها إذن. فعصبية العائلة لا يصدر عنها، هنا إلا إشارات ناقصة، مموّهة بالتباس كثير، يقرأها كلٌّ على هواه وتُنتج من الخلاف أكثر مما تُنتج من التضامن. وما هو أدهى من النقص والالتباس أن هذه الإشارات يجرّدها وسطها الأميركي من معظم قوة الإلزام التي لها في بلد المنشأ. فالذي يدير ظهره للجالية هنا– أو يحصر إسلامه ولبنانيته وما إليهما في بيته أو في وسط أوسع بقليل – لا

تملك الجالية أن تعاقبه. في بنت جبيل، كانت أشياء كثيرة تخدم العصبية من اختيار المقهى الذي تجلس فيه إلى اختيار الدكان الذي تتحوّج منه إلى إمكان الخدمة أو المساعدة في أصناف كثيرة من الظروف تعرض – أو هي أُعدّت بحيث تعرض – لكل إنسان. هنا لا يطرد فورد من مصانعه من لا يمتثل لأوامر الجالية ونواهيها. هذا لا يعني أن أبناء الجالية غير محتاجين إليها. بل يعني أن الحاجة لا تثمر إلاّ إلزاماًَ ضعيفاً، يحصره كل فرد أو مجموع أفراد في حدود يملك رسمها. لا آلة الوراثة سليمة إذن ولا إلزام الجماعة كاف. في بنت جبيل، تضبط الجماعات الأفراد. وأما هنا فالجماعة، حين ينظر إليها بعين الأفراد، إرادية جزئياً. أي أنّ رعاية استمرارها وفعاليتها رهينة – جزئياً أيضاً – باختيار الأفراد الحرّ. وهذا نظام حياة خطِرٌ على الجماعات، بحسب ما هو مشهور.

قلت لهم أيضاً إنني لا أدري ماذا عليهم أن يفعلوا، وإنني أوافقهم على أن فعّالية الجالية في خدمة عناصرها وأهلهم في لبنان وأثرها – الذي هو متصل بهذه الفعّالية – في وسطها الأميركي، يُعدّان ضئيلين إذا قيسا بعدد أفرادها وبكفاءاتهم وبمقدار النجاح الذي توّج كفاح الكثيرين منهم. على أنني أحسب أن الصفة الطوعية للتضامن قد تزكّي – في ما يتعدّى المبادرات التي تقوم على استنفار الجالية كلّها – نشوء نوىً صغيرة ترعى قيام مؤسسات ذات نفع عام، لتعمل في المرحلة الأولى، على أساس تجاريّ ثم تُجعل، بعد استيفاء الكلفة والربح الحلال، ملْكاً للجالية. هذه المؤسسات – قلت – عليها أن تقوم بمعظم نفقاتها ويُستحسن أن تربح وأن تستخدم أرباحها في ما يصلح للجماعة، وليس لها – إن شاءت أن تكون بذرة وقدوة – أن تبقى عالة على النواة التي أنشأتها وعلى الجماعة.

لم أكن مُحتاجاً إلى ضرب أمثلة، لأنني كنت سمعت القوم يتداولون الأمثلة كل يوم. ولم يدهشني أنهم استحسنوا ما أوصلتني إليه معاشرتهم في آخر هذه الرحلة. ولم يكن عهد معظمهم بلبنان بعيداً فأدركوا ما كنت أشير إليه حين ذكرت "النزاعات المجلّدة" التي تعتور صفوف الجالية وقد ظلّت على صيغ قريبة، شيئاً ما، إلى تلك التي كانت لها في جبل عامل قبل عشرين سنة أو أربعين. وكنتُ قد حَدسْت صلةً ما بين مكوث هذه النزاعات في نوع من بيت الثلج والصفة الاحتفالية لحياة الجالية الداخلية في ديربورن وولعها بالتصوير.

تولّيت قيادة الصحب إلى باب المصعد، حتى لا يصل تنازعُهم المرِح للزعامة إلى هذا الأمر. وكانت ناطحات السحاب القريبة تبدو، من زجاج المصعد المكشوف على العراء، صاعدة إلينا فيما نحن هابطون. وحين وصلنا إلى بهو الفندق، وتجاوزت السجّادة مودّعاً، ظهَر لنا الباب

الذي كنّا قد أودعنا عنده غوّاصة يوسف على مسافة خطوات. فحضر الجوع إلى ذاكرة معدتي دون إبطاء.

الأكسس

كنّا ندخل ديربورن، من جهة دكس، حين فتحتُ كوّة الغواصة لنتنشّق هواءً بارداً ولو كان من صُنع فورد. فإن فَتْح زجاجِ السيارة وأقفالِ أبوابها، في قلب ديترويت، أمر لا تحمد عقباه، على ما يُقال. وذلك أن ميليشيات المدينة لا تطيق المَحافظ إلاّ في جيوب أعضائها ولا الذهب إلاّ في معاصم صويحباتهم. وكأنّما أنعش الهواء البارد همّة يوسف – التي لم أرها فاترة في أي وقت، على كل حال – فعرض عليّ أن نمضي ربع ساعة في "المركز العربي" (أكسس) الذي هو عضو في مجلس أمنائه. قلت: تغدّاني يوسف متأخراً ويريد أن يتعشّاني مع غروب الشمس. بل عشرَ دقائق يا يوسف!

استقبلنا ح.ج. في بهو المركز، وقال إنه كان تلميذاً لي في أواسط السبعينات وإنه من علّمه حرفاً كان له عبداً. كان ثلاثينياً شأن يوسف ومعظم أصحابه. الثلاثينيون الذين جاؤوا إلى هنا أطفالاً أو يافعين يرتقون المراتب في الجالية وسيكونون هم "السومت"، على ما يظهر، قبل أن يبلغوا الأربعين. قلت لـ ح.ج. إن القليل الذي علّمته إياه من الترجمة والتعريب (وهي مادّة يتضمن اسمها خطأً في الترجمة) لا يستأهل أن أضع رجليه في القيود، وإنني سأعتقه لوجه الله، على كل حال، إذا صحبنا في زيارة سريعة للمركز.

بدا من كلام ح.ج. أن المركز مؤسسة من مؤسسات الرعاية الاجتماعية في المدينة، وأنه مستقلّ في تمويله عن الجالية. وبدا أيضاً أن الترجمة أمر مهمّ في عمل المركز لأنه يُترجم للمهاجرين الجدد ما يحتاجون إليه من أوراق ويطبعها ويسهّل علاقاتهم بدوائر الهجرة ويقدّم إليهم النصح أثناء بحثهم عن عمل وسكن. ثم إنه يوزع أيضاً معونات غذائية على المحتاجين ويعنى بحاجات أسرهم الصحية وغيرها. وكان بين ما زرناه قاعة للرياضة وجدنا فيها نحو عشرين من الفتيان موزّعين بين ألعاب مختلفة ومعهم مدرّب. وقال ح.ج. إن المركز يريد أن يجنّبهم أخطار الشارع ومواضع أخرى لا تهمها صحة زوّارها كثيراً.

شاهدنا أيضاً معرضاً للحِرَف العربية القديمة فيه ملابس بدوية أو ريفية وعُدد لصنع القهوة العربية وأشياء أخرى. بدا لي المعرض فقيراً. لكن ح.ج. قال إن المركز يعمل لزيادة المعروضات تدريجاً. وشاهدنا معرض صور لبعض مؤسسي الجالية العربية ولظروف عملهم وحياتهم في الثلث الأول من القرن. ثم وقفنا أمام لوحة كبيرة عليها صور المبرّزين من أبناء الجالية في حقول أميركية

مختلفة مع خلاصة لما قدمه كلّ منهم. سرّني أخيراً أن أرى صورة قريب لي من أصدقاء الطفولة اختارته المدينة "أباً مثالياً" هذا العام. قلت: كبُر مُحسن وهدأت حدّة طبعه.

كنتُ أعاين إذن تكوّن ذاكرة أميركية للجالية. فأنت ها هنا لا تردّ فوراً إلى "الوطن" إذا شئت أن تفتش في ذاكرة الجماعة. بل الصور والنُبذ تنبئ أن أناساً عاشوا هنا وأن بعضهم مات هنا وأن في حياتهم هذه ما يستحق الذكر ويستحق أن تلتئم حوله ملامح شخصية للجالية. لم يعد للوطن أن يستغرق كلّ شيء، إذن. هو ما فتئَ حاضراً ، يشهد لحضوره، مثلاً، ما حواه المعرض من ملابس وعُدد للقهوة. إلاّ أن هذا الحضور خرج من أوصافه الزمانيّة–المكانيّة وتجمّد في الفلكلور. فكأن المعرض، بهزاله النسبيّ، مجرّد علامة لانتماء عام. وأما الحياة، فها هي تقف إلى جهة النُبَذ والصور.

شكرت لـ ح.ج. هذه الجولة الشائقة في ماضي الجالية وحاضرها. وكان عليّ أن أشكر يوسف أيضاً. فخابرتُ أختي من السيارة وقلت لها:

– يوسف يريد أن يتغدّى!

المحاضرة

يُحكى أن رجلاً من فقراء الناس أنفق جملة قروشه البيض ذات صباح في شراء كمية من اللحم لم يَدخل مثلُها منزلَه قط. ثم ذهب إلى عمله وهو يمنّي النفس بعشاءٍ أحمر عند الإياب. وفي النهار دعت زوجته بعض صويحباتها إلى مشاركتها الطعام، فأتين على اللحمة عن آخرها. حتى إذا دخل الرجل بيته وطلب عشاءه، زعمت له زوجته أن القطّ أكل اللحمة. طار صواب الرجل وقام إلى القط الذي كان نائماً في الزاوية ووضعه على الميزان. وحين نظر إلى إبرةِ الميزان ازداد جنوناً وزمجرَ في وجه زوجته.

-هذه هي اللحمة فأين هو القط؟!

تذكّرت هذه الحكاية، وأنا على المنصة، في ندوة دعت إليها، في الربيع الماضي، ستون هيئة ثقافية لبنانية واستضافها دير أنطلياس. كنا خمسة على المنصة بيننا نائب إيطالي ومرشح لرئاسة مجلس الوزراء (إذا لم تتحول كل المجالس البلدية إلى حكومات). أي أننا لم نكن كلنا من النكرات الجامعية. وكان الحضور في القاعة الفسيحة، لا يزيدون عن الستين ولو واحداً. قلت: هؤلاء هم الداعون فأين هم المدعوون ؟

وحين كانت ج. ر. تدعونا إلى ندوة في دارها، كانت تجتهد في توزيع البطاقات شخصياً، على بيوت الناس ومكاتبهم، طوال أسابيع، تشاؤماً منها بكفاءة البريد اللبناني وتعويلاً على مفعول الزيارة الشخصية الداعم لمفعول البطاقة الأنيقة. وكانت تدعو معنا مطراناً ما تضع يدها عليه، ليكون ثوابُ الآخرة أيضاً بين فوائد حضور الندوة. فكان يحضر بعد هذا كله عشرون مستمعاً أو ثلاثون، ولَدت زوجات المنتدين – باستثناء المطران – رُبْعهم، على الأقل، خصّيصاً ليستمعوا إلى محاضرات آبائهم.

أقول إن لتفكك العشيرة آثاراً مدمّرة على الحياة الثقافية! وذلك أنه حين يكون لك عشرات من "أبناء الأعمام" في المدينة – وهذه كانت حالي في ديربورن – يحضرون للاستماع إليك ويحضر معهم من يحبّهم ومن يبادلهم اللياقة باللياقة. وقد تحصّل لمحاضرتي، في هذا الوسط الدافئ، أربعماية مستمع، لو ألقى أحدهم إبرةِ لرنَّتْ وهم يصغون، طيلة ساعة و ربع الساعة، إلى نصّ

مكتظٍّ بالألفاظ الحوشية والتراكيب المستصعبة. وكان أحدهم – وهو ابن عم لي – لا يعرف من العربية إلا أسماء أهله وأقاربه، لأنه برازيلي المولد والنشأة ولغته الأم هي البرتغالية.

كان الأصدقاء يريدون أن يقيموا لي، في أول الأمر، حفل تكريم ولا يستبعدون أن ألقي فيه حديثاً توحي به المناسبة. ولم أجد غير المحاضرة متراساً أرفعه في وجه هذا الاحتمال المرعب، ولم ينزل الداعون عند رغبتي إلا بعد كفاح مرير وعلى مراحل. قلت لهم إن ما لقيته من التكريم، منذ وصولي، كان محرجاً وإن المزيد منه سيبدو– لي أنا، على الأقل– مضحكاً. وقلت لهم إنهم هم أولى مني بأن يكرّموا وإنني راغب حقاً في تكريمهم وإنّه لما كان الكلام بضاعتي الوحيدة فإنني مستعد لمحاضرتهم راجياً أن يعتبروا المحاضرة تكريماً. وبدا لي أنهم قبلوا، ولكن سذاجتي أخذت تتكشف لي تدريجاً(بتوسط الهاتف) بعد أن غادرت ديترويت، أول مرة، في رحلات لم يتهيأ مثلها للسندبادين لأن أيّاً منهما لم يكن جوّياً.

كان اقتراح المحاضرة ورطة أوقعت نفسي فيها وأنا مدركٌ خواءَ وفاضي من مادّتها وضيقَ وقتي عن الانصراف إلى وضعها. فلم يكن أمامي غير أيام الباهاما القليلة أوزّع ساعاتها بين الكتابة والراحة والسباحة. وأما في غير الباهاما... ولم أجد في سابق معاناتي الطويلة للحبر والورق ما يجعلني أعدّ نفسي قادراً على ارتكاب نص تترامى أطرافه فوق ساعة تامة من التلاوة في هذا الوقت المتقبض. لذا أجزتُ لنفسي الاستعانة – أكثر مما تجوز الاستعانة – بنصين قديمين لي، كنت حملتهما ليسعفا ذاكرتي، عند اللزوم، في مناقشات الندوة التي بدأَت بها (في بوسطن) رحلتي إلى الولايات المتحدة وكانت علّةً فاعلة – بلغة أرسطو –(أي بطاقةَ سفر وتأشيرة) لقيامي بهذه الرحلة. ذاك وحده ما أتاحَ لي أن لا أخرج من الباهاما إلا وفي حقيبة يدي محاضرة من أثقل عيار. وأولى ميزاتها كانت التجاهل التام– الذي لا أغادره عادة – لكون المقيمين في بلادنا ما زالوا ينسون العربية، من دهر طويل، نسياناً صيّرهم بلا لغة – أو يكاد – وقد كان زياد الرحباني ألطفنا إحساساً به. فما بالك بالمغتربين الذين ألِفَ معظمهم – لحسن حظه – لغةً أخرى ؟

وبينا أنا أكتب جاءني هاتف من بيت أختي في ديربورن يقول إنني سأجلس، يوم المحاضرة، إلى "مائدة شرف" مُحاطاً بتسعة وعشرين، لا يزيدون واحداً ولا ينقصون، من أعيان الجالية. ولم يكن أمامي إلا التضرّع مرة أخرى إلى أصحاب الدعوة أن يجنّبوني هذه الكأس، فوعدوا خيراً.

وحين عدت إلى ديربورن عشية اليوم الموعود وجدت الاستعداد على قدم وساق، وأُبلغت أن مائدة الشرف قد أُلغيت. ولكن ما مضت ساعة على تنفسي الصعداء ، حتى علمتُ اتفاقاً أن ما سمّي إلغاءً للمائدة المذكورة كان، في الحقيقة، تعميماً لها. فقد نُصبت في قاعة المركز الإسلامي الكبرى عشراتٌ من الموائد المستديرة وهيئت لاستقبال الأطايب، عصر اليوم التالي، من فاكهة وحلوى. وأخذ الشيطان يُمازحني، على عادته في الملمّات حين لا يكون لي صبرٌ على مزاحه البتّة. فتخيلت أصحابي وقد وضعوا لي على المنبر صينيّة مشبّك (أكبر بقليل من صحون الحاضرين ليُعرف القط من اللحمة) أصعد فآكلها ثم أنزل فيصفّقون لي والسكّر يقطر من ذقوننا جميعاً، وكفى الله القوم شرّ هذه المحاضرة.

غير أنني استعنت بالله على هذه الوسوسة وطلبت سحب الموائد وجعل الكراسي صفوفاً وإلغاء طلبات الأطايب التي كانت قد أبلغت إلى محلات مختلفة. وقيل لي إن الوقت ضيق على إعادة ترتيب القاعة، فانتدبت لهذه الغاية ابن أختي وابن عمي الناطق بالبرتغالية. وقد بدا لي أن هذا الأخير، دون سواه في دنيا الله الواسعة، سريع إلى فهم أغراضي والإشفاق لحالي. وقيل لي أخيراً إنه لا بدّ من القهوة بعد المحاضرة، فرضخت مشترطاً أن تحصر آلة القهوة في ركن من أركان القاعة ، ثم أخلدت إلى النوم.

"التصويت بالأرجل"

بعد المحاضرة فتح العريف باب المناقشة، ودعا إلى المنبر شاباً مُعْشِب الوجه، في أواخر عشريناته، رفع يده فوراً. كانت النساء يشغلن جانباً من القاعة أعدّ لهن، باستثناء واحدة جلست إلى جانب زوجها في الصف الأمامي ولم يعترضها أحد. وكان الله قد كفى أختي المتأمركة القتال، إذ طرأ لزوجها ما حال دون حضوره. وكنت جالساً بمواجهة الجمهور– بعد أن غادرت المنبر – إلى جانب إمام المركز (وهو مؤسسه) الذي لم ينل جلال الثمانين من خفة الظل التي عرفتها له حين جلست في هذه القاعة نفسها أوّل مرّة – وكانت لا تزال فيها روائح البناء – سنة 1965. كان هذا الجامع المفتوح، حيث هو، على رياح العالم الأربع، قد صمد لعصفها في أرجائه مراراً، في ربع القرن الذي انقضى على تأسيسه. وبقيت الوجوه إياها في مجلسه – إلا من غيّبه الموت – وبقي إمامه ليواجه، في السنوات الأخيرة، عاصفة أخرى يأخذ عليه كثيرون أنه أسلس لها قياده فأفقده هديرها حدّة إدراكه – الذي كان حادّاً في ما مضى –لمعنى عبارة صغيرة يرددها الجمهور الأعظم من المسلمين العرب في الولايات المتحدة. "نحن هنا في أميركا"! لكنني أعتقد، وإن كنت لم أجالس الرجل إلا ثلاث مرات أو أربعاً في مدّة ربع قرن، أنه يحني قامته للعاصفة وينتظر أن تمرّ. ولعله يرجو أن يصمد حيث هو إلى أن يقيّض له تسليم هذا الصرح بيده لخلَف يكون مدركاً إدراكاً حادّاً " أننا هنا في أميركا".

بَسْمَل الشاب المعشب الوجه، إذن، وحمد الله وأثنى عليه ثم نمى نفسه إلى الأئمة الأطهار وأمرنا بالصلاة على جدّهم رسول الله فأطعناه. وخلت أنه سيقول بعد ذلك قولاً جميلاً لأن الصلاة على النبي تقرن في ديارنا بكل ما هو جميل، فيقال: هذا جميل كالصلاة على النبي. إلاّ أنه ما أن فرغ من الديباجة حتى أخذ يتلعثم ويلحَن ويدخل في الجملة ولا يخرج منها. وفهمت منه ، بشقّ النفس، ثلاثة أمور. أولها أنه غير موافق على تصورّي للمشكل اللبناني، وثانيها أنه يسألني عن هذا التصوّر، ما هو؟ وثالثها أن كلّ صاحب بيت عليه أن ينظّف أمام بيته. وأدركت من هذا القول الأخير أن الرجل يشير إلى شيء ورد في ختام محاضرتي وهو أنه حين تتقطع أواصر الدولة الواحدة وتنحلّ عرى الاجتماع الوطني، فإن كيد الطوائف إحداها للأخرى، في الحرب الأهلية، يأخذ في الارتداد إلى نحر كل طائفة، على حدَتها، ويصير التقاتل بين صفوفها مرجّحاً في العاجل أو في الآجل. هذا كلام كنت كتبته قبل أن يندلع القتال مرّة أخرى بين الصفوف الشيعية، في أواخر تشرين الثاني، ممتداً إلى بيروت من ضاحيتها. وقد شاء الرجل الذي سمع الكلام المذكور في أثناء

القتال أن يفهمني أن القتال إنما هو تنظيف لفناء البيت (بكسر فاء الفناء الذي لا تخفى ضرورته على اللبيب).

وقبل أن يفرغ الشاب من كلامه كانت ثلاث أيدٍ أو أربع قد ارتفعت في القاعة. وكانت بينها يد واحدة من قريباتي بالغَت في رفعها على سبيل الإلحاح. وأدركت من سيماء الوجوه أن طالبي الكلام إنما يريدون الردّ على الشاب لا طرح الأسئلة عليّ. ولم يكن أمامي غير ثوان أقرر فيها ما إذا كنت سأتولى الردّ بنفسي أم سأعطي الكلمة لطالبيها. هذه الثواني القليلة لم تكن قد انقضت حين وقف واحدٌ ثم ثلاثة من الصف الأول في القاعة وتقدموا لمصافحتي مهنئين ومُستأذنين بالرحيل. فكان أن اضطررت إلى النهوض لمصافحتهم. وفي لحظات نهض أكثر من نصف الحضور وأخذوا يتقدمون مني واحداً واحداً، وسط جلَبة الكراسي، حاذين حذو الأوّلين وكأنهم يصوّتون بأرجلهم لإنهاء المناقشة. وحين فرغت من هذه المصافحة الطويلة غير المألوفة في المحاضرات كان الشاب لا يزال واقفاً بجانب المنبر ينظر إليّ وإلى من بقي في القاعة، وهم كثُر وقف بعضهم ينظر إلينا أيضاً وانصرف آخرون إلى شرب القهوة.

ثمّ رأيته يخطو الخطوات الثلاث التي كانت تفصله عني ولحظت، لأول مرة، شحوب وجهه واضطراب حركاته، فابتسمت له. تمتم الرجل بكلمات اعتذار ثم عرَض أن يقبّل يدي. ولكان أفلح في ذلك لو تأخرت في الخروج من ذهولي لحظة واحدة. على أنني حين حاولت النطق لم أجد ما أقوله للرجل سوى أن أسأله الصلاة على النبي، ففعل. ثم طلبت أن أقبّل وجنتيْه فبادلني بمثل ذلك. وكان بعض الحضور قد تجمعوا حولنا، فقلت له إنه لم يجاوز حقه قطعاً وإنني لم أدرك، حتى الآن، ما الذي حمل المنسحبين على الانسحاب. فانصرف من القاعة راضياً وانصرفت إلى شرب القهوة وأنا في غاية الغيظ، لا من سؤاله، بل من "الفرصة" التي فرضها عليّ لأستعرض "شهامتي" على هذا النحو المُهين له ولي و لجماعة الحاضرين أيضاً.

غير أن مرحاً غامراً ما لبث أن خيّمَ في جو القاعة حالما أخذت التعليقات على المحاضرة ترِد. فهذا يقول إنه لم يكد يفهم شيئاً ولا يدري لم بقي يصغي مأخوذاً طيلة هذا الوقت. وذاك يطلب شرح المحاضرة في محاضرة أخرى. وذلك يقول إن المجال باتَ متاحاً أمام ابن عمي الآنف الذكر ليُحاضر بالبرتغالية. وقد استوقفني من بين التعليقات واحد وجدت فيه بداية تفسير لحالة الإصغاء التي أجمع المعلقون على أنها كانت بلا سابقة، لأن الجمهور يملّ كلام المنابر بسرعة، في تلك البلاد، فلا يتحرّج السامعون من التململ والتشويش وقد لا يتحرّجون من الانسحاب إذا أطال

الخطيب. فـ "البلاد حرة" على ما يردّد الأميركيون كل يوم، ولا سطوة للخطيب إلاّ بمشيئة سامعيه لا بمشيئة غيرهم. ونحن قد أسلفنا أن الإلزام في الجالية ضعيف.

قال سَميّي أبو علي أحمد (وما أكثرهم) إن هذه المحاضرة أشبه بـ " العَمدة" التي كان فتيان قرانا يتبارون في رفعها وإن عرب ديترويت سينتظرون الآن أن يحضر إليهم خطيب آخر يرفع أمامهم عَمدة أثقل وزناً من هذه. كان لي أن أفهم أنني دحرجت على مسامع القوم محدلة من محادل السطوح سحقت نفوسهم سحقاً. ولكنني حملت التعليق على محمل آخر. وهو أن القوم وجدوا في محاضرتي – ببسيط العبارة – احتفالاً لغوياً أطربهم. كانوا يصغون إلى لغة أصولهم تزجى إليهم من غير تلعثم ولا لحن، فطربوا وإن لم يفهموا كل شيء.

وبين ما فهموه جميعاً، بلا ريب، أن في هذه المحاضرة رغبة في سلام لبناني هي رغبتهم العارمة أيضاً، وإن داخلها من الالتباس ما يُداخل كل الرغبات. وهم الآن – إن أخذنا بقول سميّي – ينتظرون من يردّ على لغة أصلهم نقاوة يجدونها فائقة تلك التي أفلحت أنا في ردّها. كان الأمر كله إذن أشبه بالقدّاس. وخطر لي أن الفاتيكان قد يكون أخطأ حين فرض على من يتبعه من النصارى نقل القدّاس – أو معظمه – إلى لغاتهم الحديثة.

أتاحَ لي تعليق سميّ إذن متعة الشعور بشيء من الوضوح. وأكبرت كثيراً ما أظهره لي جمهور الحاضرين من تسامح إذ لم يبد لي أن استصعاب الكثيرين منهم فهم النص قد أحنقهم عليّ. فلعلّهم قد فهموا ما هو أعظم قيمة من محاضرتي ومن كثير غيرها. وهو أن أحداً من الناس لا ينبغي له أن يستسهل لوم أخيه لأنه جاء بما لم يفهمه. وذلك أن ابن آدم بين اثنتين: أن لا يفهم الناس منه وأن لا يفهم هو شيئاً من الكلام الذي يضج به العالم. فإن قال لك فلان إنه لم يفهم منك بعض أشياء فقل لفلان – واثقاً – إنك تكاد لا تفهم منه شيئاً.

فاتني أن أذكر أنني سألت السيدة التي بالغَت في رفع يدها طلباً للكلام عما كانت تريد أن تقوله. فأجابت أنها كانت تنوي أن تلفت نظر الشاب المُلتحي إلى أن البيوت ينبغي أن تظل قائمة ليتيسَّر لأهلها تنظيف ساحاتها! وجدت الجواب مُفصِحاً عن علاقة نسويّة بعمران البيوت وقلت لصاحبته إنه كان مستبعداً أن يخطر لي مثله ببال.

العرس

حضرت عرساً واحداً في ديربورن، وفاتني آخر وأنا خارجها وسافرت قبل الثالث بيوم واحد. فالجالية مزواج، وأهالي بلدتي، وحدهم، لهم في كل شهر ثلاثة أعراس أو أربعة.

في صدر القاعة الشاسعة، كان العروسان يجلسان خلف منصة مرتفعة وحولهما فتيات الشرف وفتيانه، وهؤلاء اقتباس يشير إلى أننا لم نبقَ حيث كنّا. وإلى جانبي المنصة كان جناحا القاعة حافلين بموائد مستديرة جلس إليها المدعوون وهم مئات عديدة. هذا بينما تركت قبالة المنصة مساحة خالية للرقص تنتهي إلى منصة أخرى أقل ارتفاعاً حلّت فوقها الفرقة الموسيقية.

والأشرطة المصوّرة تشير إلى أن العروسين، قبل أن يصلا إلى المنصة، تؤخذ لهما صور "رسمية" في السيارة وفي أمكنة بعينها من المدينة وفي مدخل القاعة. ويقفان أثناءها أو يجلسان وحدهما أو مع مرافقيهما في أوضاع مقرّرة.

والمدعوون يتعشون وتقدّم إليهم حلوى ومرطّبات وقهوة ويصرف النظر عن علب الملبّس. ويعنى أهل العروسين بالاستقبال ويتفقد العروسان المدعوين، مائدة مائدة، بعد العشاء. ويقبّل أحدهما أو كلاهما – تبعاً للجنس وللألفة والقرابة – كلّ مدعوّ يغادر القاعة، إلاّ من ترك حقه في ذلك.

غير أن أهمّ ما في العرس الرقص. ففيه يصل عرض الجماعة لعلاقاتها ولما فيها من أدوار ومراتب ولأصلها أيضاً إلى ذروته. الموسيقى شرقية بطبيعة الحال. وهي تكاد تكون متصلة، فتخرج الفرقة من قطعة لتدخل في أخرى بعد كلمة من العريف. ومع الفرقة مطربان(أو ثلاثة) ألِفتهما الجالية في أعراسها، والصوت والموسيقى يخرجان عاليين جداً من المكبّرات يمتحنان صمود الآذان.

ولائحة الراقصين معدّة سلفاً، يقدّمهم العريف زوجاً زوجاً. وهم أقارب العروسين وأنسباؤهما وأصدقاؤهما. واللائحة تكون طويلة بحيث تغطي معظم السهرة التي تمتد إلى ساعات الصباح الأولى وبحيث تشتمل على جميع أُسَر البلدة أيضاً أو معظمها لأن البلدة "تظهر" في هذا النوع من المناسبات وتعلن تشابك عناصرها وتحتفل بوجودها نفسه، وهي على ألوف الأميال من موقعها الجغرافي. ذلك أمر وضعت لإعلانه أغنية خاصة يفتتح بها الشريط المصوّر عادة:

جينا لك عظهور الخيل		والبيارق بتلالي
اشتقنا لك يا بنت جبيل		يا جبين العزّ العالي!

يخرج الراقصون إلى الحلبة، إذن، زوجاً بعد زوج. والزوج عادة زوج وزوجته أو شقيق وشقيقته أو ما جرى هذا المجرى. وحالما يبدأ المطرب أغنيته ويبدآن الرقص يتقدم منهما بعض أقربائهما، واحداً واحداً أو اثنين اثنين، ويأخذون "يرشّون" فوق رأسيهما أوراقاً من فئة الدولار الواحد. وحين تكثر الأوراق على الأرض يُهرع أطفال صغار ويجمعونها في علب كبيرة ثم يحملونها إلى "أمانة الصندوق" التي تتولى عدّها وتوضيبها. هذا بينما يواصل بعض أقارب العروسين شَغْل الحلبة، مع معظم الراقصين، ويتقدم، بين الفينة والفينة، من يرشّ عليهم المال تكراراً.

هذا المال يذهب إلى العروسين، يغطيان بمعظمه نفقات العرس، وقد يبقى لهما منه شيء يستعان به في فتح البيت الجديد. والنفقات تتباين من عرس إلى عرس: خمسة آلاف، عشرة ، خمسة عشر. وأما المال المجموع فقد يصل في العرس الكبير إلى ثلاثين ألفاً... وقد لا يصل إلى نصفها.

وحين يرغب العريف في التنويع يدعو إلى الرقص فئة مهنية برمتها. في العرس الذي حضرْتُه دُعي الصيادلة، شباناً وشابات، وأدهشتني كثرتهم. أو يدعو عازبات وعازبين (يُسمّيهم)، لعلّ يكون لهم فأل حسن بالمناسبة.

ثم يحضر الجنوب فجأة، في وسط العرس. يحضر جملة وهو لم يغبْ تفاصيل. يدعى إلى الحلبة حاجّ وحاجّة. الحاجّة مُسنّة تجلس على كرسيّ أحضر لها والحاج النشيط يرقص حولها والمطرب يبذل صوته دون حساب:

منرفض نحنا نموت		قولولن رح نبقى
أرضك والبيوت		والشعب العمْ يشقى
هَوْ إلنا يا جنوب		يا حبيبي يا جنوب

إذ ذاك يأخذ المدعوون في مواكبة الأغنية بصفق الأيدي ويتقدم بعضهم أفواجاً، يشاركون في الرقص (الذي يصير ذَكَرياً خالياً من أيّ غنج) ويرشّون المال على الحاجّ والحاجّة ثم يحملون

الحاجّ الذي يبدو مُنتشياً وهو يلوّح بيديه، إلى أن تنتهي الأغنية. أما المال الذي يرشّ في هذه الدقائق (ويبلغ نحواً من ألفي دولار في كل عرس) فيذهب إلى المحتاجين والأيتام في بنت جبيل. هذا الحماس يمهّد للدبكة التي تضيق بها الحلبة على رحبها فتنقسم – رغم رجاء العريف – إلى حلقات تدخل الواحدة منها في الأخرى وتتبارى الأقدام والمكبّرات في هزّ أركان القاعة.

لاحظت أن الدعوة إلى العرس شبه محصورة في أهل البلدة. حتى أن المدعوين من جوارها القريب كانوا قلائل. فعلى الرغم من اختلاط السكن في ديربورن، يظهر أن المخالطة بين جاليات القرى المختلفة (وهي ما يتيحه المركز الإسلامي مثلاً) ليست بالعميقة. وكنت قد سألت إن كانت الدعوة إلى محاضرتي قد شملت مسيحيين. فقيل لي إن المسيحيين في "الشرقية"! والشرقية المذكورة هي شرق ديترويت التي اتفق لديربورن أن تكون في غربها! وما كان لي إلاّ أن أعجب من هؤلاء الأميركيين، كيف ارتضوا العيش بالملايين، وكأنهم أكياس رمل، على خط التماس الذي اسمه ديترويت – ميتشغان. ومهما يكن من شيء، فقد ساغت لي الموازنة بين المحاضرة والعرس اللذين حصلا في يومين متواليين. لم أتوقف عند أبّهة العرس وعري المحاضرة، فهذا هو الفارق السطحي، على أهميته... وجدت أن العرس يرجَح المحاضرة بكثير من جهة أخرى أيضاً. وهي أنه معرض فاقع الألوان وعالي الجرْس لعلاقات الجماعة بما تفترضه من فوارق في القرب والبعد والصفة ومن تشارك ووحدة في آن. ففيه ينتظم الأهل أهلاً، حول العروسين، والأصدقاء أصدقاء والجيران جيراناً والغرباء غرباء (مكرّمين ومغرّبين لفرط التكريم، في الأغلب) وفيه يحدد كل مدعو – أو أسرة مدعوّة – مكانه من أصحاب المناسبة، بنوع مشاركته ومقدارها، ومكانته في الجماعة كلها، من بعض الوجوه. ويتبارى أصحاب العرس ومدعوّوهم في التقرب بعضهم إلى بعض، والرفع من شأن بعضهم بعضاً، بفعل البذل المتبادل، على ملأ من جماعتهم كلها. فعلى أصحاب العرس كرم الضيافة والحفاوة وأبّهة المكان وعلى المدعوّين المشاركة بما ينتظر منهم من تصرّفات والهدية. وهذه مباراة لا يخرج منها أحد خاسراً، من حيث المبدأ.

وأما المحاضرة فهي مناسبة بسيطة تكاد لا تمنح المستمعين شيئاً غير الإفادة مما يسمعون – إذا وُجدت – والمشاركة في جمع يفترض أنه ذو مستوى استثنائي. وقد تجب الإشارة إلى جلوس "الأعيان" في الصف الأول، ولكن هذا الامتياز متواضع والحصول عليه يتكرر كثيراً. في ما عدا ذلك يظهر الأفراد في المحاضرة أفراداً وتطمس علاقاتهم وأدوارهم (أو تكاد، على الأصح، لأن بعضها يتراءى دون بروز). ويظهرون أيضاً سواسية، على الكراسي، كأسنان المشط وتكاد تطمس مراتبهم. فلا يبقى امتياز فاقع إلاّ للمحاضر الذي يفرض الصمت على هذا الخلق المجتمع لسماعه

ويتكلم وحده. وقد تحصل فائدة ما أيضاً للمؤسسة التي دعته أو استضافته، لأنها أكدت بذلك اختصاصاً لنفسها ولوناً أو اتجاهاً ما.

لن أعرض هنا لحفل التكريم لأنه لم يحصل. سوى أنه، بلا ريب، وأياً يكن تواضعه، أقرب إلى العرس، من حيث التوزيع المنصف للفوائد، منه إلى المحاضرة. وإذا كنت غير نادم البتّة على رفضي إياه، فإنني أعلم الآن أن هذا الرفض قد حصل لأسباب أنانية كلياً.

الأميركيون

الأميركيون شعب سمين. عندهم كثير من كلّ شيء. كثير من الطعام وكثير من الكلام يقولونه وكثير من السيارات وكثير من الأدوات المنزلية. وأكثر ما تُرى سُمنتهم في قاعات المطارات حيث يظهرون لك عشرات أو مئات دفعة واحدة. وذلك أنهم لا يظهرون بكثرة على أرصفة الشوارع لأن الأمان عندهم ليس كثيراً.

والنحافة عند الأميركيين قيمة كبيرة. لذا ينتقل واحدهم بسرعة بين الحِمْية والسمنة وبين السمنة والحمية. عليه وجدت حرفة الخياطة مزدهرة، في جاليتنا هناك. فالأميركيّ قد يضيّق ثيابه ويوسعها أو يستبدل بها غيرها مرة ومرتين في العام. والخياطون لا يضرّهم هذا.

اليوم تشيع المجلات أن النحافة مغادرة عرشها الأميركي عما قريب وأن مزايا السمنة ستظهر، بهمّة الموضة، وسيصير أبرز ما عند جين مانسفيلد – أو ما كان عندها قبل ربع قرن – برنامج حدّ أدنى، في التسعينات، لنساء أميركا والعالم. وقد بدأت الأكتاف تعرض والياقات تكبر والخصور تختفي. شيء آخر أخذ يعلو وينتفخ، هذا العام، وهو مؤخرة السيارات، وهذه علامة لا تخطئ. فالموضة تحب أن تحكم العالم كله وتوحّده ليسهل عليها الأمر. هكذا تنشئ قرابة بين مقدّم الحذاء وسطح البيت وبين عمود الإنارة وحوض الحمام. وهي تعيد صياغة النساء وتجعلهن، بعد ذلك، مثالاً يُحتذى لهذا كله، وللرجال أيضاً. تلعب الموضة بالأجساد وبالحديد والحجارة وبالمليارات. تستعبد الموضة العالم وتسلّي خواءه الرهيب.

على أن الأميركيين شعب مستبشر. يحيّونك، في الطريق، مفترضين أنك جارٌ وليس من شيء أسهل من محادثتهم، ويهنئونك باليوم المشمس وبما هو أقلّ منه.

أهدت أختي الكبرى إلى جارها القديم ديك كتاباً لي نشر، بالفرنسية، قبل أعوام وأنشدت:

تلك آثارنا تدل علينا...

كان ديك مُتحيّراً في أمر لبنان، وهو يجيد الفرنسية التي درّسها أعواماً في كلية. إلاّ أنه اليوم بائع ثياب في "جاكوبسون" أفخر متاجر كالامازو، لأن هذا العمل أنسب لميزانيته ولمزاجه.

قرأ الكتاب فأعجبه وقرر أن ينقله إلى الإنكليزية... إذا وجد ناشراً. وحين كنت في كالامازو جالسني ديك ساعة من الزمن. تذاكرنا في أمر مشروعه، بسرعة، ثم تنقلنا بين أمور أخرى نسيت معظمها فوراً.

على أنني حين زرتُ المتجر، في عصر ذلك اليوم للفرجة، لقيتُ أربعة أو خمسة من زملاء ديك وزميلاته، عرّفني هو بهم، فاستعجلوا إبلاغي أن خبر الحديث الذي جرى بيني وبين ديك قد وصلهم وأنهم سعداء للغاية لأن هذا الحديث أمتعنا، نحن الاثنين، وأفادنا. هكذا صيّروا أهون الأحاديث حدثاً.

وهكذا هم: مستبشرون. يهنئونك على الكبيرة والصغيرة. يكادون يمنحونك جائزة إذا أحسّوا أنك استطبت قهوتك. ويحثّونك على الإقدام لأن كلّ شيء سيكون خيراً مما كان. وأما الكنزة التي أعجبتني فكنت أعلم أن حديثنا الشائق، أنا و ديك، لن ينقص من ثمنها سنتاً واحداً.

الجبّانة

رأيت وجه جدّي لأمّي، قبل ثلاث وعشرين سنة ، لأول مرة وآخر مرة، في إحدى جبانات ديترويت القديمة. كان الرجل الذي ماتَ هناك في مطلع العشرينات من هذا القرن، ينظر إليّ من أعلى الشاهدة، وقد صانت حدّةَ عينيه ونضارةَ وجهه من وهج الشموس وعصف الثلوج بلّورة سميكة. كانت الصورة تبدو– لولا طرازها القديم – وكأنها أخذت أمس. ولم يكن جدّي يكبرني يومذاك إلاّ ببضع سنوات. كنت في أوّل عشريناتي وكان هو – ولا يزال – في آخرها. وكان بين وجهينا ملامح شبه – كنت سمعت خبرها من جدّتي، في أيام الطفولة – فبدا وكأنه أخ أكبر ولدته لي هذه الشاهدة.

لم أذهب إلى قبر جدّي في هذه الزيارة الأخيرة لديترويت، وهي الأولى بعد تلك التي رأيته فيها. فان الجبّانة التي هو فيها قد هجرت ومات الذين كانوا يعرفون مكان القبر أو هرموا كثيراً. ثم إنني لم أكن راغباً حقاً في النظر إلى ذلك الوجه المتجمّد في وسامة فتوّته إلى الأبد، بعد أن بتّ أبدو وكأنني أنا أخوه الأكبر.

وقالت الحاجة:

– هذه "الكاز ستايشن" مثل الجبّانة لا تردّ أحداً.

كانت تشير إلى كثرة الوافدين ، في هذه الأيام، من الوطن. يحلّون ضيوفاً في بيوت ذويهم. ينتظر بعضهم الإذن بدخول كندا التي يسهل الحصول فيها – بعد انتظار – على تأشيرة إقامة، ثم على منزل وعمل، بعد انتظار آخر في "مخيم" للانتظار. يريدون دخولها، كيفما كان، ولا أهل لهم فيها، على الأغلب، ولا معارف. بعضهم الآخر يؤمّله وضعه بالحصول على إقامة في الولايات المتحدة. ومحطات الوقود التي لا تردّ أحداً منهم، يقبعون فيها ليلاً، يديرونها من داخل أكشاك مصفحة. فإذا أغراهم زبون بشراء بضاعة مسروقة مثلاً وخرجَ واحدهم من الكشك، فإلى الجبّانة، لأن الزبون يؤثر إذ ذاك أن يسلب مال المحطة. وهذه المحطات التي باتَ العرب يملكون معظمها في ديربورن أهمّ معالم "الدورة المغلقة" التي تحاول الجالية أن تنسج خيوطها لنفسها. العرب يشغّلون العرب، في المحطات، والعرب يشترون الوقود لسيّاراتهم من محطات العرب. وتلي المحطات، في الأهمية، متاجر اللحم والخضار والحلويات وكل ما هو حلال.

على أن الجبّانة التي فيها قبر جدي، كادت أن تردّ الشيخ خ. ب. قبل وصولي إلى ميتشغان بنحو أسبوعين. وبوفاة الشيخ – الذي كان قد جاوز التسعين – لا يبقى من الذين عرفوا جدي في ديربورن إلاّ واحد أو اثنان. والشيخ خ. ب. لم يكن علاّمة علماً أفنى شبابه بين "آيات الله" في الحوزات. وإنما حصّل لنفسه شيئا من الفقه بنفسه وكان رجل تقوى وشهامة. فندبَ نفسه، منذ شبابه، لحفظ الدين في أبناء بلدته من المُهاجرين، يعلّمهم الفروض ويزوّجهم ويغسل موتاهم ويكفّنهم بيديه. وأقام على ذلك نصف قرن أو يزيد إلى أن هرِم ووُجد من يقوم مقامه، فابتنت الجالية لنفسها جامعاً وجعلت له إماما وإدارة. ثم إنها اقتنت لموتاها أيضاً جبانة جديدة وهجرت القديمة.

ولكن الشيخ خ. كان قد أوصى بأن يدفن في الجبّانة القديمة التي ألفها عشرات من السنين وأودعَ فيها مئات من خلانه وعشراء عمره. وحين وصل المشيعون، ومعهم شيخا الجالية، إلى تلك الجبانة وجدوا أن اتجاه القبر الذي أعدّ للشيخ خ. "غير شرعي". وكان شأنه في ذلك شأن سائر القبور التي هناك، فهي كلها محفورة على نحو لا يستقيم معه توجيه وجه الميت إلى القِبلة. ولعلّ السبب – ولم أحقّقه – يتصل بالتنظيم البلدي.

والذي حصل أن الشيخين تداولا في الأمر ثم انسحبا، دون أن يصلّيا على الجنازة، وتركاها في العراء. وصحب هذا الانسحاب سخط من ذوي الفقيد واضطراب بين المشيعين كادا يؤديان إلى ما لا تحمد عقباه. على أن أهل الخير أفلحوا في جعل القوم يتمالكون أنفسهم. فصلّوا على الجنازة وتممّوا مراسم الدفن. ثم غادر أبناء الفقيد ميتشغان إلى مقامهم في ولاية أخرى، رافضين قبول التعازي من أحد.

والتعازي مستحقة اسمها، في ما أرى ، وفقد العزيز يصير أصعب مما هو إذا لم توقف حياتك أنت أيّاماً أو أسابيع ولم يقف معك فيها من يعزّيك بما ينتظر منه. أقول هذا لأتجاوز، دون مزيد، حكاية الشيخ خ. ب. الجارحة إلى حكاية أخرى من حكايات الموت العربي في أميركا.

والحق أنني لستُ أول من يقول هذا. فبين من قالوه كلود ليفي – ستروس الذي تذكّرته في ذلك الصباح. كان جارنا القديم ف. – وأنا أعرفه ذا مروءة من فتوّته – يريد أن يهدي إليّ بدلة ويريدني أن أصحبه إلى متجره البعيد لأختارها بنفسي. مانعتُ كثيراً ولكنه أصرّ كثيراً. والذي يزور ديربورن ويكون له فيها ما لي من الأهل والجيران والأصدقاء يقضي كثيراً من وقته وهو يمانعهم

ليردّ عن نفسه "موجات" الحفاوة وكرم الضيافة. وهو، أحياناً، لا يستطيع، أو يتعب. عليه ذهبنا معاً إلى المحلّ. وكان قد مضى علينا هناك نحو من نصف ساعة اخترت فيه البدلة، حين تلقى ف. مخابرة من منزله تنعى إليه أخاه المقيم في بنت جبيل... أطلعني فوراً على الخبر والدموع تلمع في عينيه، ولا تنزل. وتخيّلت – وأنا في غاية الضيق والحرج – ما كان حصل لو أن المحلّ في ساحة بنت جبيل. لكان وجد هناك عشرين جاراً يتولون عنه إقفال المحلّ ويصحبونه إلى بيت أخيه مواسين مساندين. ولكان استطاع أن يبدأ بالبكاء فوراً. هنا كان عليه أن يصرف أولاً زبونين أو ثلاثة من الأميركيين بعد تلبية طلباتهم. وكانت هذه أول مرّة أجد فيها ميل الأميركيين إلى المزاح والإكثار من الكلام سمجاً. وكان عليه أن يرتب أمور المحلّ مع المستخدمين لبقية النهار. وكان عليه، أخيراً، أن يردّني أنا إلى بيت أختي. قلت إن الذي يريد إذناً بالبكاء، في أميركا، تفرض عليه شروط كثيرة.

وفي الصباح التالي بكّرت إلى منزل ابن الفقيد. فهو أيضاً نزيل ديربورن. كان لا يزال وحده وقد أعدّ القهوة المرة. فالناس في مثل تلك الساعة منصرفون إلى أعمالهم وشؤون بيوتهم. لكن المشكلة ليست من هذا القبيل. سيحضرون كثراً بعد قليل.

وحين أستعيد اليوم ما قالته لي أختي المتأمركة وابنة العمّ أم ف. وأقرنه إلى ما جرى في جنازة الشيخ خ. ب. وما جرى حين تبلغ ف. نعي أخيه، أرى بمزيد من الوضوح أن هؤلاء القوم محاصرون. محاصرون في الحياة وفي الموت. تحاصرهم الغربة وتحاصرهم الهوية. الهوية تبعد عنها الأولاد، الغربة تبتلع الأولاد. الغربة لا تسهل العزاء، الهوية لا تسهّل الجنازة. وهم غير مستغنين عن الهوية ولا عن الغربة. فكلاهما يقدم لهم ما لا يُستغنى عنه. ولكن أمرهم يبدو وكأنهم يعاقبون لقاء ما يقدّم لهم. وكأن الشجعان والطيبين منهم يُظلمون ويعنّفون، من الجهتين، بكلام صارم.

"عهد الصبا الغالي"

تلتقي صباك وما قبله وما بعده في ديربورن وتؤرخ بالوجوه مراحل حياتك. ساقيا المقهى الذي كنت تجلس فيه مراهقاً أشعلَ الشيب رأس الأول وصار الثاني حاجّاً يصلّى على أذيالهِ. والذي صار صديقك في يومين هنا، رأيته آخر مرة حين كنت تصوّر خراب بيروت، في أواخر سنة 1976، وكان يومئذٍ صديقاً لأخيك الأصغر. اليوم تسعفه لحيته وهذا النضوج الذي تعجل فيه الهجرة، فيصير صديقك أنت. وسليل البيت الحالم بالزعامة المسلوبة، كان ينزل إلى غرفة الأسرة في بيتكم ليلاً، وأنت في الخامسة عشرة، ليحدّث أباك بأمور لم تدرك فحواها إلاّ حين أخذت تكترث لماضي البلدة. وهو اليوم تاجر تقلّبَ بين الأقطار – وما كنت تحسب أن الكدح يغري أمثالهِ – ولكن بقيت لوجهه وقامته هذه الكبرياء الغريبة التي يحفظها النحول. والآغا. والصبايا اللواتي أوتين هنا سمنة وحكمة وسلطة. والأصدقاء الذين ذكرت أنهم تغيروا كثيراً، تذكرُ أين كنت تجالس كلاًّ منهم (أو تماشيه) ومتى.

ولقد علمت من صديق سهر معي ساعة بعد انصراف الساهرين أنني لست أول من تردّدت بين جوانحه هذه الرعشات. بل القصة التي قصها عليّ أولى، لرقّتها، بأن تروى. لذا أروي عن صديقي ن. ما يلي:

كانوا أربعة: ثلاث نساء وهو. وكان ينظر إلى واحدة بعينها جلست قبالته لا يملك أن يحوّل نظره عنها رغم حيائه من النساء والشرود المزمن في عينيه. كان قد مضى عامان على وجوده في أميركا ولكنه كان يراها الآن لأول مرة هنا. وكان يراها لأول مرة منذ اثنين وعشرين سنة لأنها جاءت إلى هنا قبله بعشرين. كان ينظر إليها إذن. وكان موجعاً أن يكون كل شيء تقريبيّاً إلى هذا الحدّ. قامتها هي قامتها طولاً ولكنها سمنت لأن هذا ما يصنعه العمر بجميعهن. ذراعاها وحدهما ظهرا أقصر مما كان يراهما. وهو قد نسب ذلك إلى السمنة أيضاً فلم يقتنع. وجهها استطال قليلاً وان تكن ملامحه تلبّدت بعض الشيء، فكان يفترض فيه أن يزداد استدارة. وعيناها أحاط بهما ما يحيط به العمر كل العيون. الفم والشعر قريبان من عهده بهما، إلا أنّه قرب لا يكفي، فيُبعد ويعذّب. كان كل شيء تقريبيّاً. وكان هو أقرب ما يكون إلى أن يحسب نفسه أمام أمّ تشبه ابنتها. وقد ألحّ هذا التشبيه عليه حتى ظنَّ أنه أعماه وأن الذي ما يزال ينظر إلى هذا الجسد شخص آخر.

جرى الحديث عادياً. وكان يسأل ولا يكتفي بالنظر. كانت هي تجيب وتطيل الكلام ولا تطيل النظر. ذكرا ما جرى للأهل وما جدّ من الأولاد وذكر هو أناقة البيت. وذكرت ابنة خالها بعض أنواع الشاي وبعض مزاياه. وأوجزت له هي سيرتها في المهجر وكأنها توجزها لإدارة رسمية. كان الحديث لا يتوقف، بل كان يتقاطع حديثان أحياناً لأن الغرفة كان فيها أربعة. وكانت هي أكثر المتحدثين كلاماً وهو أكثرهم إصغاء. وحين حاولت عمته ذكر ما كان بينهما فسألتها إن كان لا يستأهل أن تعمل له أكلة تحسن عملها، أسكت عمته بابتسامة وإشارة وبقي المزاح مزاحاً ولم يظهر الحرج على أحد. لم يظهر عليها الحرج ما دام الحديث جارياً وكان عالماً أن حرجه لا يظهر عليه.

إلى أن صمت الأربعة حين صمتت هي، بغتة، وكأنها أفرغت صدرها من الكلام. صمتوا وكان جائزاً أن تختم الجلسة بعد الصمت لولا أنها لم تكن قد استغرقت من الوقت، بعد، ما يناسب مثلها. فلبثوا صامتين عشرين ثانية أو أربعين. وكان ينظر إليها حين تغير شيء في وجهها لا يوصف ثم أدخلت شفة تحت شفة وأخرجتها وسُمِع لذلك صوت ضعيف يسمونه عندنا " الطقمسة". كان قد نسيَ منذ سنين كثيرة أن خجل الصبا الذي يصحبه الصمت كان يحملها، في تلك الأيام، على هذه الحركة. كان قد نسي، فتذكر الآن. وفطن إلى أنه لم يكن يأمل من الكلام أن يردّ إليه وجه صباه وجسدهِ، وأن الكلام لم يكن إلاّ حجاباً نسجه الخوف من تلك العودة التي لا تكون إلاّ في الصمت. بعد ذلك لم يكن مهمّاً أن تستأنف عمّته الحديث فتذكر فضل تمر أريزونا على تمر كاليفورنيا.

قال لي ن. إنّ هذه "الطقمسة" وما ردّته إلى وجه صاحبتها وشخصها كله كانت أهم ما حصل له في أميركا، وكان قد حصل له فيها أشياء كثيرة. وسألته إن كان يعتبر أن انفصال هذين العُمرين اللذين كانا يرغبان في الجري معاً قد جعل كليهما خراباً. فأجابني أن العمر، بعد آلام الصبا، خراب على كل حال... لأن المرء حالما يأخذ في تقرير ما يريد أن يصنع بأيامه يأخذ في صنع أشياء أخرى أو تغيّر الأيام معنى ما يصنعه.

المطار(2)

كان الرجال هم هم، على وجه التقريب. ازدادوا اثنين أو ثلاثة وغابَ منهم أربعة أو خمسة من كبار السن. وأما النساء فكنّ اقل عدداً بكثير. حتى أخواتي كنّ ثلاثاً فحسب لأن الرابعة، وكانت سائحة مثلي، سبقتني إلى بيروت. لعلّ نساءنا عدن لا يطقن الوداع، لأن كل وداع يذكرهن بعشرة بعضها مرّ للغاية.

بكّرنا قليلاً في الحضور إلى المطار، وجلسنا في ردهة المدخنين. تحادثنا ومازحَ بعضنا بعضاً ومثَّلْنا للتصوير، واقفين وجالسين، أزواجاً وجماعات، وقد ذكرت ذلك. وجاءني صديق صباي الأصلع يحمل فنجان قهوة ومجلّتين أتسلى بقراءتهما في الطائرة ، وكرشه الذي يُشبه القضايا الكبرى. هو لطيف، مثل يوسف الذي يصغرنا سنّاً، أمازحهما كثيراً فلا ينزعجان، وأعلم أنهما لا يطيقان مثل هذا المزاح من آخرين. عليه واصلت ممازحتهما في هذا النص. وعنَّ لي في المطار أن الحاضرين جميعاً لطفاء. وأن الذين قابلتهم في ديربرون بذلوا كثيراً من اللطف أيضاً. وسألت نفسي ما الذي فعلته لأستحق منهم هذا اللطف كله، وأجبت أنهم يلاطفون بعضاً من أصلهم لا أفعالي.

تذكّرت بنت جبيل إذن. بنت جبيل–لبنان لا بنت جبيل–ميتشغان. وخطر لي أنه كان ممكناً، لو كانت بنت جبيل بيدنا، أن نذهب اليها سوية، من هذا المطار، على ظهور خيل عابرة للأطلسي. وقلت إن بيننا هنا شبّاناً أشداء يستطيع أي منهم أن يحمل البيرق الذي لم أكن أقوى على حمله، في بيتنا، وأنا طفل. هذا ما تريده الأغنية. وأكثرهم متأهبون لهذه العودة، مهما تكن مؤقتة، لفرط ما يشدّهم الأصل ويستغرق من وجودهم. لذا لا يفلحون في تنظيم الأفعال التي تتوق إليها جماعتهم. فإن كان من شأن الأفعال أن تنظّم فإن الأصل يصير عصيّاً على التنظيم إذا تزعزع نظامه القديم. هو يحمل نفسه من بيئة إلى أخرى ويأخذ يجهد نفسه في استعادة تنظيمه أو في استحداث آخر لا يبيده. وهذا صعب للغاية والأطلسي بحر عميق.

تذكرت أيضاً خوفي يوم قرأت – من زمن غير بعيد – أن قرى كثيرة امّحت من خريطة لبنان، في خلال الحرب الكونيّة الأولى، بفعل المجاعة والهجرة. لم ينقص عدد سكان القرية من ألف إلى مائة مثلاً. بل زالت القرية. في الحرب الحالية، دمّرت قرى وبلدات وأحياء من مدن أيضاً. ولكن الأمل الذي لا يزال أهلها يحملونه في بعثها من دمارها يلطّف من حدّة الخوف. وأما القرى التي محتها المجاعة والهجرة قبل ثلاثة أرباع القرن فان أهلها لم يبقوا أهلها. لذا كانت حالتها مبعث

خوف مطلق. عادت إليّ ذكرى هذا الخوف لأن بنت جبيل– لبنان تذوي اليوم بسرعة، وتكبر، بسرعة أيضاً، بنت جبيل – ميتشغان.

عانقتُ القوم، وبكت أختي ذات المضافة وأعلنت أختي المتأمركة أنها لن تبكي وقطّبت أختي الكبرى جبينها وابتسمت، في آن، على نحو لا يتقنه إلاّ وجهها الجميل.

ودخلت الدهليز الذي ينتهي إلى الطائرة، جارّاً العربة النحيلة التي جاءتني بها أختي الكبرى لتجنّبني حمل حقيبة يدي الثقيلة في أروقة مطار لندن. ولم أكن قد تعوّدت جرّ هذه العربة، بعد، فمالت بعد خطوات قليلة مشيتها في الدهليز، وسقطت المجلّتان على الأرض. وحين انحنيت لألتقطهما أحسست أن دموعاً كثيرة كانت تتجمع في رأسي طيلة النهار قد احتشدت في مقدّمه الآن وأخذت تتهيأ للنزول دفعة واحدة.

25 كانون الأول 1988 – 7 كانون الثاني 1989

في الكتاب